مقهی دسمبر...

الفصل الأوّل:ضوضاء هادئة

"ليس كل ما تفقده خسارة وكلّ شيئٍ تفقده في سبيل سلامتك النفسية هو مكسب عظيم."

"هو الرّجل الوحيد في العالم الذي يأخذ من نفسه ليعطيك,ربّما لم يعطك كلّ ما تتمنّاه لكن تأكّد أنّه أعطاك كلّ ما يملك"

الفصل الثاني:الساعة الثانية بعد منتصف الوحدة

"لماذا كلّما نهضت توقعني وكلّما توقّف نزيفي تجرحني, لماذا لا تحبّ نجاحي لماذا؟!"

الفصل الثالث:للموت معاني

"كنت أخطط أن أموت مدهوساً بقطار لا من الجمال!"

االفصل الرابع:مقهى دسمبر

" أنت اخترت أن تكتب قصّتك بنفسك وتختار الصواب....,"

أطلق العنان لقلبك..

الفصل الأول:ضوضاء هادئة

كان الأمر أشبه بالوقوع في صحراء قاحلة دون قطرة ماء, او ان أسبح وأنا ظمآن, الكلّ من حولي مسلّحٌ بالآبآء سوايّ مسلّح بوحدتي.

أينك يا أبي تغيثني من عيون البشر وتحملني على أكتافك لأناطح السحاب**!**, أَعَمَلُكَ هذا أهم من تخرّجي**؟؟**.

وبعد بدء مسيرة تقديم الشهادات الجامعية, أصبحت أقدامي تصفّق خوفاً و ارتباكاً ورحت أبحث عن وجه أبي من بين آلاف الوجوه لعله حاضراً ,لكن كل ما وجدته هو خيبة الأمل.مطأطئ الرأس وطأت عتبة المسرح, وصرت أجرّ أقدامي مُماطلاً مكسوراً, وسرعان ما رحت لأمي محملاً بغضبٍ متأجّج , وهي تحاول تهدئتي ومعانقتي والدّفاع عن أبي , إلى أن قاطعنا صراخ رجل رمادي الشعر عريض الأكتاف

يركض و يركض الخوف معه, ملامحه مشتّتة ودموعه متأهبة للنزول,**!**لكن ومن شدة غضبي قلت بنبرة تفلق الصخور, **ألم تأتي باكراً؟؟**

توقف لبرهة يستجمع أنفاسه فقد حطم الركض رئتاه وحطم الإستقبال قلبه.فشحب لونه وتغيرت أنفاسه إلى أن بدأ يهوي في أحضان الهواء فأدركته سريعاً خوفاً من أن تقبّله الأرض

... آسف...

قالها قبل أن يفقد وعيه

بدأت الأصوات تنهش رأسي , والأضواء والضوضاء تهتك أعصابي, وبدأت الصورة تتقطّع أمام ناظري, خفتُ من قسوة المشهد ففقدت الاحساس بأطرافي, وكأنَ الوقت أخذني معه برحلة لا أعلم مدتها ثمَ رماني ثانية في صالة الإنتطار, بين بكاء أمي و ضعف اخوتي,صرت جالساً على مقعد من ندم, وأتنفس اللَوم, الكل يصرخ من حولي الكل خائف وفي العادة نلجأ الى أبي في حالة الضعف أمَا الآن فقد لجأنا للبكاء والدعاء,

كان الوقت يلسعني بعقاربه السَامة منتظراً رؤية أبي, ولكن كان الله رحيما, خرجت الطبيبة مطمئنة: **استعاد وعيه وأصبح بحالة جيدة ,لكن قلبه ضعيف فأبعدوه عن أي ضغوطات ويحتاج عملية فور ان يستعيد نشاطه.**وسارعت بالهروب من أسئلتي.

,,,

جبالاً قد وطأت أكتافي عندما أدركت أنني أنا من أضعفه, وأوصله إلى الفراش, وعندما دخلنا الغرفة, استقبلتنا ستائر حزينة وجدران شاحبة وابتسامة واهنة, كان وبرغم ضعفه يفكر كيف يخفف عنَا

سارعت اليه أقبله وأشتمّه, متألّماً حزيناً فقد عشت يتيماً لساعات, أعتذر وأبكي وألوم نفسي, ظلَ مصغياً بهدوء, الى أن طلب مني الاقتراب فقبّلني من رأسي :**مبارك لك لقد رفعت رأسي.**

شعرت بانفطار قلبي و دفئٍ عميق.

وبعد جلسة مطولة مع الطبيبة المسؤلة و كخلاصة أنه قد تعرض لضغوطات لم يحتملها فتعرّض لذبحة قلبية, وبعد الفحوصات تبين أنه بحاجة إلى عملية قلب مفتوح,مع أدوية خاصّة وراحة تامّة.

"أنا لم أفقدك لكنّي شعرت بحرارة الفقدان وقساوة الحياة"

صارت الغرفة رقم 19 هي مسكني الجديد,أقضي معظم وقتي بابتكار الأحاديث المشوّقة والأسئلة المفتوحة كي لا يشعر هو بالرتابة, وعند نومه أقضي وقتي بالقرأة, فلم تكن الأريكة البنية مريحة بما يكفي لتربح نومي.

فبالكاد مرّت الأيام عليّ, وجعلتني شاحباً كالجدار متأمّلاً أن ينتهي كلّ شيء.وفي جلستي منتظراً نتائج التحاليل,رن هاتف أبي فألقيت نظرة متطفلة على المتصل فكان من عمله فقررت أن لا أرد لأبعده عن أي شئ يشغله,لكن ومع تكرار الاتصال فهمت ان الامر ضروري,ففتحت الخط دون التفوّه بكلمة فهاجمني وابلٌ من الكلمات التي تحمل الطابع القاسي ,أتت على الشكل التالي

:ان التّصرف الذي تصرّفتَه قبل هربك اسبوع من الشركة كلّفتك وثيقة إقالة فصِرت الآن رسمياً خارج الخدمة, والمبلغ الذي حصلت عليه اعتبره تعويضك المالي,توقف عن الهرب وشرّفنا لكي تمضي الاستقالة.

كنت على وشك الانهيار فكان الخبر صاعقاً , كيف أنّ المصائب تنهمر واحدة تلوة الاخرة...لكني تمالكت أعصابي وزرعت بسمة كاذبة تغطّ ملامح وجهي الذابلة كي لا أحمّل أبي

هماً فوق همّه.ثم أتت النتائج وموعد العملية تحدّد في صباح الغد,فنادى عليّ أبي بصوتٍ مبحوح,وهمس في أذني

:_ستجد المال على ظهر الخزانة.

_توقف عن التفكير سوى بكيف تخرج بصحة لا مثيل لها.

لكن فور عودتي للبيت سارعت للخزانة ووجدت النقود, ومن تطفلي عددتها 30 مليون ليرة, عرفت أنها ثروته التي سيعيش بها شيخوخته , أخذت النصف ورحت المشفى, اقف جوار ابي اشجعه وأدعمه و كذلك أمي و اخوتي.

وقبل العملية نادوا عليّ في المحاسبة, فرحت غير مكترث بالدفع فبحوزتي 15 مليون, وعندما وقفت أمام الزجاج المليء بالثّغرات, ناظر المحاسب فيّ وقال بخجل: 17 مليون. رغم أن صحّة أبي أغلى وأهم من المال لكنه رقم كبير جداً! فأمّنت له المبلغ كاملا ورحت أنتظر في الممر لساعات ويكاد صدري يخرج من مكانه وأمي شاحبة الوجه تدعو وتدعو و أختاي يحتضنان بعضهن و أنا من فرط التوتر سرت في الممر قرابة الألف مرّة وبدأ عقلي بالأفكار السلبية, صرت أشعر بثقل الهواء في جوفي,وغلاظة الأفكار وهي تخرق رأسي شعرت

أنني بحاجة للنوم, نومٌ يقلّني إلى البعيد,بعيدٍ يشفي ضميري من التأنيب,ونفسي من اللّوم.

أوقات الانتظار تطول فهي ليست كالأوقات,إنما هي سيوفٌ تقطّع المنتظر ارباً ارباً,

وبعد ساعات من معانات الإنتظار خرج الطبيب مبشّراً على نجاح العملية,فتنفست الصعداء بعدما كنت على شفير الموت,

ولم تكتمل سعادتي الى أن رأيته في اليوم التالي نائماً نومة جنديٍ عائداً من الحرب منتصراً, دخلت وأختي جلسنا بجواره وآثار التعب تأكل وجهه, فحضنتني أختي وبدأت البكاء بصمت

:أتعرفين يا (ريم) بين كل تجعيدة وتجعيدة من وجه أبي قصة نعيم عشناها سوياً.

وعندما استفاق من غيبوبته احتفلنا في غرفته, وكان بالكاد يضحك, وبدأت الاتصالات تنهمر من الأقارب و الاصدقاء وصرت الآن المسؤول إلى أن يستعيد عافيته,واكتملت الفرحة عندما سمحوا له بالذهاب الى المنزل,فسارعت أمي بتوضيب الأغراض وسبقتنا للمنزل لتحضّره لاستقبال أبي,وأنا تكفلت

بتحضيره, وقبل الرّحيل دعيت مجدداً لمكتب المحاسبة وكانت الصدمة أن علينا دفع 7 ملاين اضافية سعر المبيت في المشفى ل 14 يوماً,لكن كلّه فداءاً لصحة أبي

مال الدنيا ولا مكروه يصيب أهلي.

الأول سبتمبر,أمشي بقرب أبي بتأنّ وخوف وكأنّه طفل في أوّل مشيه أخاف عليه من السقوط, ركب السيارة جانبي و أخذ نفساً بعمق شديد يستجمع به أنفاسه التي تناثرت بالمشي و سألني عن المبلغ الذي دفعته فانجبرت بالتّفوه بالخرافات كيّ لا يشغل باله بشيء.

دخلنا البيت وكانت رائحة كعكة الليمون تكسو زواية المنزل وكأنّ مكوّناتها من الحب الخالص وصوت شجارٍ هامس بين

فتاتين,سرنا نحو غرفة الطعام التي تزيّنت وتحضّرت لاستقبال أبي ,فشعرت بدفئ قلبه ورايت دموعه تنهار بعدما قال بصوتٍ هزيل: **لم أكن مستعداً للرحيل عنكم فأعادني الله لأرى أجمل ما قد يملكه الانسان...**

ذاك الرجل ذو الأكتاف العريضة واللّحية الرمادية ضحكته حياةٌ دون مبالغة أمّا الفتاتان الضاحكتان (ريم ,و, رنا) هما سكّر المنزل فتاتان بزيّ ملاك, أمي؟! أمي الملاك بحدّ ذاته

طعام متنوّع فيه تعب أبي وحبّ أمي وحلاوة الجَمعة.

ومباشرةً بعد انتهاء الطعام وُضعت الكعكة الدائرية وعليها فواكه مشكّلة,فانتظرنا أبي ليستجمع أنفاسه ليلقي خطاباً صغيراً كشكرٍ وتقدير للجميع فقال:

أولاً الحمدالله الذي بفضله استطعت أن أراكم مجدداً وثانيةً مبارك لرامي التخرّج و آخراً وليس أخيراً شكراً على هذا الاستقبال والطعام الشهيّ وشكراً لله أنكم عائلتي...

ياه!! وكأنّي امتلكت الدنيا ... الآن أكثر من أيّ آن لأنني ولربما شعرت بذلك الشعور الذي يطعن في الصّدر المسمّى الفقدان.

فأدركت أن عليّ استغلال كلّ ثانية من كل شيئ أمتلكه والاستفادة منه قدر الامكان قبل فقدانه.

الثاني من سبتمبر,صباحاً أتجرّع قهوتي بعد نومةٍ طال انتظارها وأفكّر من أين آتي بالمالِ لأعوض ما أنفقناه من مدّخرات أبي, فأشرقت عليّ أمي محمّلةً بالفرحة وقليلٍ من اللّوم وأعطتني ظرفاً باسمي :**لقد وجدت هذا الظرف في جيب أبيك من يوم التخرّج , انه مبلغ 10 ملايين ليرة من فئة الخمسين ألفاً,لك لكن لتنال منّي الرضا ضعهم كبديل عن المبلغ المدفوع من المدخرات**

_اعتبريها تمّت

كان هذا المبلغ الذي أخذه أبي من عمله قبل الاقالة,كان قد أخذه ليكافئني به, فشعرت أن عليّ ارجاعه لأشفى من وجع اللّوم وكتعويض أيضاً , فدخلت غرفته ووضعت الكرسي الذي

سيحملني الى ظهر الخزانة, ففُتح الباب وكان أبي يمشي مع عكّازه فسألني باستغرابٍ بماذا أفعل فاجبته:

_ بقيَ معي المال من المشفى فأتيت لأردّها مكانها

_:كم بقي ؟

_حوالي ال16مليون. قلتها بعدما أجريت عملية حسابية سريعة

_:والأموال التي أخذتها من هنا كانت من فئة الخمسينات؟!

شعرت أنني وقعت بالفخ عندما أدركت أن كلّ الأموال المخزّنة كانت من فئة المئة ألف فبدأت أخترع الأكاذيب, فطأطأ رأسه وبدأ يصارع تعبه ليصل للفراش فأدركته الى أن جلس واستجمع أنفاسه وقال :

اسمعني جيداً يا بني, ان حبل الكذب أقصر مما تعتقد, أعلم أنها بالنسبة لك ليست بكذبة انما تفعل الأنسب لصحتي, لكن صدّقني صحتي أتت من الصّدق,فصادقني بما لديك.

_لكن الطبيب قال وقاطعني قائلاً

_24 مليون ليرة ,وماذا بعد عملي؟ خسرته؟. حسناً أجلس جانبي لأخبرك

_تخبرني ماذا! بعد كل هذا وأنا كنت قلقاً وخائفاً كيف أخفي كلّ هذا عنك من أين لك كل تلك المعارف لقد أدهشتني , وهل أنت بخير من بعد كل الذي تعرفه؟

_لماذا كل هذا الخوف ,اسمعني يا فتى عملي لقد عرفت أنني مطرود من آخر يومٍ رحت فيه للعمل , أمّا النقود التي في حوزتك كنت قد استلفتها قبل المغادرة,

أما مصاريف المشفى فسهلة,ان كانت في حوزتك 10 م وأنت قلت المتبقي 16 م أي أن المتبقي الفعلي 6م ,أي ان المشفى أخذت 24 مليون

_أبي اسمح لي لكني لم أعرف أنني أمتلك أباً فائق الذكاء

ضحك ضحكة خالية من المشاعر,**وقال ماذا تريد أن تعرف بعد كيف عرفت أنّ التي في يدك هي أموالك الخاصة؟ و لما خسرت العمل؟**

_أريد أن أعرف لكن ليس الآن لأن قلبك مزال ضعيفاً,لاحقاً أرجوك

_لا تبالغ أنا فعلا متأثر,لكني لا أعطي لمثل هذه المشاكل مساحة كبيرة في نفسي فليس كلّ ما تفقده خسارة فخسارة

عملي كدفاع عن مبدئي وديني هي مكسب ضخم, فكلّها مادية يعني ليس لها قيمة,أنا الذي أهتم له عائلتي وصحتي, أهم من مال الدنيا كلّه

_كيف تقول مادية وليس لها أي قيمة , فكلّ شيئ تشتريه بالمال ,أي كل شيئ مادي له قيمة ,كصحتك كان سببها المال

_:المال كان وسيطاً بين صحتي والله فالله هو الذي أعطاني الصحة ليس الطبيب الذي امتلك المال

_يعني بدون المال لم يكن هناك وسيط أي لا صحة

_:اذا كان الله يريد ان يشفيك سيفعل حتى بدون شيئ

كانت جنود الإصرار تستعمر رأيّ فانسحب من الجدال قائلاً **ستفهم يوماً ما يا ولدي , لكن نصيحة أعط كل شيئ قيمته المستحقة,واعلم أنّ الله سيعوّضك دائماً**

_حسنا يا أبي ان كان الموضوع لا يؤذيك أخبرني

_استلمَ قبل أن أغادر بيوم مديراً جديد, وفرض علي أن اسوّق لمنتجٍ غير شرعيّ فرفضت لأن هذا يعارض مبادئي ومبادئ ديني, فهددني بالطّرد, وفي اليوم الثاني (يوم تخرجك) أجبرني الحضور والاّ يحرمني من السلفة التي طلبتها(هدية التخرج)

فانجبرت على فعل كلّ هذا فأعطاني السلفة من فئة الخمسينات لسبب مجهول. ,لذلك لا تحكم على احد قبل أن تعرف الاعذار, فكلٌ منّا لديه حياة ومشاكل وظروف لا أحد يدركها سوى صاحبها.

كانت الجلسة مليئة بالحكم التي اكتفيت بسماعها, فما لي أن أفهم.

فقبّلت رأسه وقمت الى غرفتي والدموع تنساب فقد أكلني اللّوم ثانية,وقد فهمت منه شيئاً واضحاً أنه وضع كلّ المخاطر لأجلي أنا لأكون مرتاحاً وسعيداً ,بالفعل أدركت معنى "الأب".

"هو الرّجل الوحيد في العالم الذي يأخذ من نفسه ليعطيك,ربّما لم يعطك كلّ ما تتمنّاه لكن تأكّد أنّه أعطاك كلّ ما يملك"

مرّت علي الأيام مرور الكرام, فكلّ من حولي ينعم بالسعادة,والصحة, كنّا في جلستنا نضحك نحكي و نلّتمّ على طاولة واحدة ونأكل سوياً. فأبي بدأ يلملم ماقد فقده من صحة, فجمعتنا بقربه كانت مثل مخدّر ينسيه الأوجاع و بلسم يغمر الجراح,

في السابع من سبتمبر الساعة ال6 مساءً أتاني اتصال صديقٍ لي :_**بخصوص العمل الذي سألتني عنه, انها فرصة مكلّلة بالذّهب لا تفوّت, فقط عليك الموافقة وستكون من أغنى الأغنياء .**

و بالفعل كنت من أسبوعٍ مضى قد سألتُ أصدقائي عن أي عملٍ يجني مالاً أساعد به أهلي,فعلى ما يبدو الله قد وفقني وخاصة أنه يقول أنني سوف أصبح "غنياً"وبالأخص أن وضعنا على المِحك فأكمَل

:**عمي طلب محاسباً متعلماً أميناً ,في شركته, وأنت الشخص الأنسب و خاصة أنك متخرّج بامتياز في العلوم الادارية والمحاسبة, والشركة في بريطانية وكل شيئ مؤمّن فقط وافق.**

كانت الامور تحت السيطرة,وفوق الخيال لكن أمر المكان قد أوقفني,رفعت عيوني على عائلتي فكانت أختي الصغرى ذو ال17 عشر عام تجلس في أحضان أبيها وأمي تهمس لهم كي لا تزعجني والكل سعيدٌ يضحك,انفطر قلبي من مجرد التفكير

فقلت له رافضاً:**أشكرك جزيل الشكر على ثقتك بي لكن اسمع بصراحة لا استطيع المغادرة خارج البلد,فأوصل تحياتي لعمّك.**

بصراحة لقد فكّرت بالموضوع وخاصة عندما قال أنني سوف أصبح غنياً فالمال كل ما فكّرت به منذ أن أصبحت ناضجاً ,فكان قلّة المال تعيق تقدّمي ,ووجوده كان يريحني فما الحال اذا كانت اسرتي بحاجته .لكن القرار الأفضل لسعادة عائلتي هو البقاء.

فاستغرب صديقي من ردة فعلي وبدأ يحاول اقناعي بأنه قدّم جميع مستنداتي لعمّه صاحب الشركة والامور شبه جاهزة لكني أكتفيت بالرفض و الشكر.

وبعدما أقفلت الهاتف أصِبتُ بسؤالٍ من أبي

_ما الأمر يا فتى ,من ذاك الذي استطاع ان يمحو بسمتك

_بالحقيقة لقد علمتني أن أكون صادقاً ,لذلك سأصادقكم,من اليوم الذي علمت به أن لا مردوداً ماديّ نعيش منه غير المدّخرات, فشعرت أن من واجبي كرجلٍ أنهى علمه أن يبحث عن المال ويعيل أسرته

في الحقيقة لم أكن أعلم أن الأمر قد يؤذي أبي بطريقة أو بأخرة , لكن فهمت من تعابير وجهه أنني أراه أصبح عاجزاً على أن يعيل اسرته, فقال بنبرة ثقيلة

:_لا باس أن تبحث أنت عن عمل لكن الأموال تكفي ولازلنا نأكل ونشرب, الى أن يفرجها الله وأتعافى.

_لم أقصد شيئ لكنّي أردت أن ترتاح قليلاً, على العموم العمل في الحقيقة رفضته.

بدأت الأسألة تنهمر عليّ لكنّي لم أكن أريد أن أجيب لأن الخبر غير مفرح,لكن اصرار أمي وغموض أبي أجبرني على الاعتراف

_في الحقيقة يا أهلي وعائلتي العمل كان في الخارج خارج البلاد , في بريطانية,وحتى لو أن مردودها كبير

قاطعني أبي بنبرة خشنة **حتى لو كنت وزيراً,يستحال الخروج من بيتك وموطنك, "وطنك قد اتّسع لبلدان أخرى فكيف له أن يضيق بك"**

_أبي لو سمحت لا تشغل بالك قلت لك لقد رفضت حتى لم أفكّر بالامر, فكيف أبعد عنكم.

قطع الجلسة وقال لأمي أن تقلّه الى الفراش, فكان يسير ويسير الغضب معه.

وعندما أعطانا ظهره,قامت أختاي وحاوطتاني :**أحقّاً تبحث عن عمل! قالت ريم** وواصلت رنا الكلام **ايّاك أن تفكر في السفر ابقى هنا بجواري .**عانقتهما بعدما شعرت بالدّفء ثم قلت **أيتها المشاغبتان على ماذا تلمّحان؟؟؟**

_(ريم):**أنت الأخ الأكبر ونحن فتاتان صغيرتان جميلتان نساعد أمّنا طيلة الوقت فإن كان هناك عمل يعني أكيد هناك هدايا.** واحمرّت وجنتيها خجلاً

وبعد أن ضحكنا وأثقلت بمزاحي عليهما, فرّتا الى الفراش هاربتين وصرت جالساً وحدي أتأمل الضوضاء التي تجول في جوفي, اشتعلت أنفاسي فأردت أن أنزل مساءاً وأبحث عن المال الذي يأتي لأختاي وأهلي ب"السعادة" والراحة.

لم يذق عقلي النوم أفكر وأخطط للغد كيف سأذهب وأقدم للوظائف

وفي اليوم التالي استفقت على دخول احدهم غرفتي وجلس على سريري, فتحت عيوني على ابتسامة عريضة من أبي, يدعوني

لشرب القهوة. كان الطقس ربيعياً مع نكهةٍ من برد الصباح فكانت القهوة مكان شربها على الشّرفة ,ريثما خرجت وجلست على الأرجوحة سارعت ريم الى جانبي واعتبرتني معطفها الذي يحميها من برد الصباح,

هذا الشعور أن تكون معطفاً لأحدهم يحميه ويعطف عليه...! , كان هو القهوة التي بدأت بها نهاري

نهاري الذي ,تأمّلت به طوال الليل,

فضعت في أحشاء المدينة أبحث عن عملٍ يأتي لي بالمال وبعدما رُفضت من عدةِ شركات,وبالصدفة؛رغم أنني أنكر وجود الصّدف فكلّ شيئ مدبّر؛ دستُ على اعلانٍ لوظيفةٍ في مطعم

بصراحة انها وظيفة بعيدة شهادتي لكن ان بقينا على هذا النحو نصرف من مدّخراتنا سوف نهان أنا وعائلتي لذلك رحت المطعم وفتحت الباب الذي استقبلني بالصرير,واستقبلني بلاطٌ ممسوح من كثر دعس الزبائن,سألت عن مكان المالك ودخلت غرفته التي كانت تمتلئ برائحة الزيت المقلي وجلست,وبعد حديثٍ لم يدم لدقائق ,وبشكل اعجوبي تعيّنت أمين الصندوق

بمبلغ شهري حوالي ال400 ألف ليرة ,لم يكن أبداً المبلغ الذي حلمت به ليلة الأمس لكن على الاقل شيئ أفضل من لا شيئ.

رحت أركض على الطريق فرحاً فهناك شعورٌ واحساسٌ جديد يتغلغل داخلي .فتحت الباب وسلّمت على أهلي بأخباري,لم تكن ردة الفعل كما توقعت,لكن كانت حسنة فلقد شعرو بالفخرالى حدٍ ما فشيئ أفضل من لاشيئ

على الأقلّ سأجرّب هكذا دافعت عن نفسي

أول يوم وكأنّه يوم زفافي , استفقت والفرحة قد ملأت خلايا جسمي ,بدأت أحضّر كيف سأتكلّم وأتصرّف,

سعيدٌ سأجرّب شعور الراشدين وأجني الأموال,كان المطعم بعيداً عن البيت قرابة الربع ساعة سيراً على الأقدام وفي غضون الربع ساعة على الطريق أفكّر بأول مبلغٍ أجنيه, وماذا

أشتري لأختاي وأهلي,وعند الوصول دخلت مع المالك وبدأ يشرح لي وأنا سعيد وأقبل بكل شيئ برحابة صدر كان الدوام من التاسعة صباحاً ,حتى السادسة عصراً, ولم أمانع ,

وعندما جلست مكاني مرتاحاً بدأت الزبائن تتدفّق وأنا بكامل نشاطي بدون أخطاء ,حتّى أتاني آخر اليوم والتعب يعانقني فسرت للبيت ورحت غارقاً في النوم حتى أهلي لم أكلّمهم

وسارت بي الأيام على هذه الحالة الى أن أتممت جمعة كاملة في العمل فاستلمت جمعيتي وكان شعوراً رائعة أن تجني المال من تعبك,فسارعت لأمي لنجري بعض الحسابات عن المصروف فكانت الحقيقة أكثر من مجرّد خانقة ,كان المصروف الشهري حوالي ال 800 ألفاً أي ضعف ما أجنيه

شعرت بالاحباط وأن المال الذي أجنيه لا يساوي تعبي وأن الأموال التي نكنزها ستستمرّ بالنقصان الى أن تفرغ.

غداً يوم عطلتي وقبل خروجي من المنزل أوصتني أمي على بعض الأغراض للبيت,ثمّ خرجت و قابلت رفاقي بعد غيابٍ طال, الكلّ يحكي انجازاتهم وتطوراتهم وخروجاتهم والساعات والسيارات التي اشتروها من أموال أباهم."فجلست أحدّق من

بعيد على أحلامي التي حقّقها الآخرون",وأنا أنعي نفسي في مطعمٍ قذر أجني منه قرابة اللّا شيئ, أترحّم على نفسي أيام كنت أتفاخر بما اشتريت وأنفقت, شعرت أنني عاجز وغير قادر فقلّة المال غضّت بصري,فأدركت أنّ الجلسة لم تعد تليق بي فرحت أتمشى في حديقة للمشاة على طريقي للبيت فالتفت لمكتبة قديمة تراثية تتّكئُ على رصيف عريض ,دخلتها وكانت خيوط العنكبوت تنتظرني,والغبار الذي يضجّ بالمكان اشعل فضولي بالتقرّب من الكتب وبعد نظرة سريعةٍ عابرةٍ أدهشني وجود كتابٍ قد طال البحث عنه, فحملته ورحت للمكتب راكضاً, أبحث عن احدٍ يساعدني,وبعد صراخٍ متكرر خرج رجل يشبه التحف القديمة, قد أكل العمر شبابه ورماهُ مجعّداً,رحّب بي بدهشة, فعلى ما يبدو لا أحد يدخل عنده

:ايها الفتى العشرينيّ, ما الذي رماك في موطني

قالها بمزاح جميل, بالحقيقة كنت عَكِرَ المزاج لكن مُزاحهُ أجبرني على الابتسامة,فجاريته المزاح

_:ان موطنك غنيٌ بالموارد الطبيعية وأنا كمحتّلٍ متعطّش للانتاج من واجبي أن أستعمر كل موطنٍ يرويني

:يا لك من فيلسوفٍ صغير ,كيف أساعدك وبعدما ألقى نظرة على الكتاب الذي اخترته قال بتعجّب **يا لذوقِكَ القديم أقدمُ منّي حتّى** وراح يقهقه من الضحك وبعد هدوئه تفحّصني بدقّة وقال :**ان هذا الكتاب ب15 ألفاً.**

اندهشت من سعره وبدأت أشعر بالاحراج فكلّ الذي أحمله 20 ألفاً أشتري بها الأغراض للبيت,فحملته بصمت لأرجعه, فأوقفني **:أتركه لا بأس أنا سأرجعه**

والآن ماذا حتّى سأُحرم من القراءة,المنفذ الوحيد لي؟؟ ذبلت عيوني وجفّ الحماس من وجهي وأعطيت العجوز ظهري وتوجّهت للباب, وقبل أن أفتح لأخرج, ناداني **تعال يا بنيّ** من ثم ابتسم وقال لي**:ما سرّك يا فتى أحقّاً تريد الكتاب؟**

:في الحقيقة أريده لكن ليس لدي المال الكافي

_:لا عليك أعطني قدرما تملك

_سأصارحك, معي المبلغ كاملاً, لكن هذا المبلغ تستحقّه عائلتي أكثر من ذاك الكتاب

_:أفهم أنك تضحي لأجل من تحب

_شيئ من هذا القبيل.

_:حسناً اذاً اسمعني, ان مكتبتي هذه شبه مجانية فكل الكتب بأسعار رمزية وهذه المبالغ تعود لجمعيات وعائلات محتاجة, لكني أردّت أنّ أعرف ان كان شباب اليوم مستعدّين ليضحو بالمال لأجل القراءة ففاجأتني أنت تضحّي بالقراءة لأجل عائلتك.

اندهشت فعلياً وكنت في قمّة سعادتي من ما أسمعه, فتشكّرته بعدما أعطاني الكتاب وقال **اسمع يا فتى عندما يصبح الكتاب أرخص من الخبز ولا من قارئ اعلم أن الشعب قد مات وأرجوك لاتمت**

كان هذا الرجل أجمل ما قد حصل لي منذ خروج أبي من المشفى

فعدت للبيت مع رفيقٍ جديد, وراحة داخلية

استقبلتني عائلتي بجلسة غامرة, وتفاجأت أن رنا ستبدأ مدرستها بعد أيام قليلة ,وريم جامعتها الأسبوع المقبل, والخجل قد لطّخ وجهيهما, لأنهما يطلبان مصاريف الدراسة من أبي العليل

شعرت بالغضب, لقلّة المال,واليأس وخاصة أن أختاي هما من احتاجتا اليه وخجلو لسببه,فلجأت للفراش أشكي له همّي ليستقبلني نهار عملٍ جديد

وبالفعل دخلت المطعم وكأنّي أدخله لأول مرّة الطاولات متّسخة والأرضية زلقة, والرائحة كريهة, حتّى الكرسي لم يعد مريحاً,حتّى أنني لاحظت توبيخاً يتوجّه إلي يوميّاً,ما الأمر ماذا تغير في ليلة وضحاها؟! فرجعت لحصّن أبي المنيع أسأله عن الذي تغيّر فاجابني بحكمة:**إن كنت ترى كلّ شيئٍ تغير لكنّه على حاله فاعلم أنك من تغيّرت, ودائماً لحظة التغير تكون هي لحظة الحقيقة, ففي البدايات يكون الحب ستارة يستر الحقيقة ما وراء الكواليس ويظهِرُ لكَ المسرحية الجميلة الخالية من أي تعب وأخطاء, لذلك دائماً لا تدع الستارة الحمراء تخدعك.**

كان كلامه معقّداً مليئاً بالنصائح فاكتفيت بالاصغاء والتحصّن

وفعلاً , كنت أنتظر الغد ليأتي لأواجه الحقيقة بمرّها.

فجلست على مقعدي المزعج, وشربت قهوتي الباردة, وتلقيّت كل مرٍّ بضحكة أبرد من قهوتي ولا أعلم كيف مرّت الجمعة الثانية رغم أنّ كلّ شيئٍ بارد,وفي غضون التجديف في بحر الاسبوع الثالث ارتكب أحد موظفي المطعم خطأً أوصل المالك

لأحد مراحل الغضب المتقدّمة, فجازاه بالطرد وجازى البقية بتوبيخٍ مزعج وخصمٍ على الراتب, أشعل الأمر غيظي فرحت إليه أطالبه بعفوٍ فلا دخل لي في الأمر,فردّ عليّ بصوتٍ مرتفع أن أغرب عن وجهه, فرحت لكرسيّ أستريح,لأشتكي عن وجعي, فاتصلت بوالدي:**أنا أتصل و في قلبي جمرة, إنّ ميّدان الحياة ليس كما توقّعت, أشعر بالضعف , ليس جسدياً انما داخلياً أنا أتألّم لا أعرف من أين, سامحني يا أبي سيكون هذا آخر اسبوع لي فالعمل**

ردّ وشعرت بالأمان بصوته: **ولما آخر الأسبوع لما ليس الآن حالاً ,ان كان العمل يجهدك فدعه ولا تدعه يضرّك,ولا تقلق على المال أو الخسارة,فهذه لا تسمّى خسارة فسبق وقلت لك "ليس كل ما تفقده خسارة وكلّ شيئٍ تفقده في سبيل سلامتك النفسية هو مكسب عظيم."** دائماً ما يحملني على أكتافه لأناطح السحاب**!!**

فكان آخر يومٍ لي بالمطعم أخذت حسابي,ورحت للبيت سعيداً لراحتي وقلقاً لراحتنا كأسرة, دخلت البيت وعن غير عادة لم أجد سوى أختي الصغيرة رنا **أين هم!!**؟؟قلت متردداً

فأجابت خائفة:**لقد اشتروا دواءً لم يناسب جسد أبي فتعب!,من ثم أخذوه للطبيب آخر الشارع .**

دبّ الرعب في أوصُلي ورحت أركض للطبيب,وعندما دخلت والدموع قد وصلت الى فمي, رأيته على السرير مخطوفٌ لونه, وكانت الجلسة قد انقضت بنوع دواء محدد,فجعلت كتفي عكّازه ورحنا للبيت,ثم أوقفت في صيدلية أشتري الدواء, وبحوزتي 50 ألفاً من راتبي واندهشت أنّ الدواء وحده ب48 الفاً ويحتاجه كل أسبوع, أقدامي لم تعد تحملني رحت للبيت أبكي,الى أن جفّت دموعي.

الآن لا مصروف اخواتي ولا خروجاتي حتّى الطعام أصبح بلا أهميّة. الآن نَقصُ الأموال يهدّد صحة الأب,أي الذي بدونه نهلك, "هو الذي علّمنا كلّ شيئ سوى كيف نعيش بدونه,ان كانت الأم مدرسة فهو الذي بناها,كيف لأموال أن" .....,,!!

قمت عن سريري مُنّحني الظهر ورفعت هاتفي أتّصل برفيقي

:اسمع لقد اتخذت قراراً لا أملك غيره أريد أن أسافر.

_:كيف؟ الآن ومن بعد ماذا من بعد أن ألغيّت كلّ شيئ!

:أرجوك ساعدني وبأي طريقة فالأمر يخرج عن السيطرة

_:حسناً سأكلّم عمّي وأردّ عليك

بالحقيقة مرّ يوم, وأنا أنتظر اتصالاً من صديقي,وكان اليوم كأربعة أيام ففقدت الأمل,فنزلت في اليوم التالي حاملاً شهادتي وأطوف في المدينة وضواحيها باحثاً عن لقمة العيش,ولقمة العيش تهرب منّي,لم أُقبل ولا حتّى في أرخص الاجور

هل حقاً الله رحيم؟

تعبت وقرّرت قبل العودة الى البيت أن أزور العجوز صاحب المكتبة لعلّه يهديني بحكمته, فاستقبلني بزيٍ قرمزيّ مخطّط وابتسامة مفعمة بالنشاط,لقد كان مسروراً بقدومي يريني الكتب والروايات والرفوف والمجموعات فقلت له بصوت منخفض

_بالحقيقة انا لم آتي الى مدرسة الأوراق والكتب فأنا قرات الكثير أنا اتيت الى مدرسة الحياة التي علّمتك كيف تعيش مرتاح البال

أجاب بعد أن ضحكة ساخرة

_:مرتاح البال؟ ماالذي أتعب بالك و جعلك مهموماً مهزوماً وأنت في الصبا

_المال المال المال

_:ياه تذكّرني بنفسي عندما كنت في سنّك ,كنت أركض وراء المال الى أن أصبحت من أتعس الأثرياء

_مستحيل أن تمتلك المال وتكون تعيساً أو حزين,فالمال يحلّ كل المشاكل :الضجر, الوحدة,الصحة

_:يا ولدي توقّف بجعل المال الفاعل والمفعول,توقّف عن إعطائه هذه القيمة فهو لا يستحق,لقد جنيت منه الكثير والآن أتمنّى لو أنني بقيت فقيراً طوال حياتي.

تعجّبت من تمنيه ومن كلامه وأكملت النقاش الذي لم أغيّر به رأيي

_انّي مصرٌ على كلامي,لو معي المال لخرجت مع أصدقائي وركبت السيارات وأكلت الطعام ونعمت أسرتي بالسعادة و الصحة .

_:اذاً أنت طمّاع

احتدّ النقاش ولم أعد أعرف بماذا أدافع

_لست طمّاعاً اذا أردت أن أعيش حياة الرفاهية,على كلّ حال أريد أن أخبرك لعلّك تعطيني شيأً أقنع به,أنا سعيّت لسفرة الى الخارج

وكأنني شتمته,عندما سمع الخبر,فوقف مصعوقاً بلا حركة جاحظ العينين ,يناظرني بغضب,وفجأة تحول غضبه لترجي

_:لاتحاول ترك كل شيئ وراءك والهرب إبقى أرجوك...

خفت من فكرة أنّ عجوزاً يترجاني بالبقاء في البلد وعدم السفر, لكنني قد اتّخذت قرار التغير ولا مفر.

رجعت البيت ورحت لفراش أبي وكنت خائفاً من أن يخذلني لساني وأقول ما لا يجب قوله, فصحته بحالة يرثى لها

رنّ هاتفي!! ركضت لغرفتي

_بشّر

_:اسمع التأشيرة (الفيزا)قد ختّمت من المرّة الماضية و تغطّي سنتين وعمي لا مشكلة عنده في استخدامها,وهنا الجواب المنتظر عمي لم يعد يحتاج لموظفين,لذلك ان كنت تريد السفر فالتأشيرة جاهزة عليك بحجز التذكرة والمبيت(الفندق)

تشكّرته بعد العديد من المحاولات والتجارب التي باءت بالفشل

وأخذت بعض التفاصيل,أقفلت الهاتف والتّوتّر صار بدل الدم في جسمي, لا عمل هنا ولا هناك لكن على الأقل هناك يوجد فرص,يوجد انتعاش فأنا بلادي قد غزاها الفقر,مخاطرة لكن أفضّل الابحار بدل أن أرسو على المرفأ أنتظر الغرق.

لكن مستحيل أن يوافقو أهلي , أبي لم يوافق على العمل بشهادتي خارجاً فما الحال دون عمل أصلاً.تركت عقلي مشغولاً يفكّر ورحت بجسدي على الفراش,أنادي النّوم لعلّه يخطفني من أوجاع أفكاري.

الخامس من اوكتوبر,جالسين على مائدة الطعام ننتظر الدجاج المقلي,فأتى طبق كبير عليه أربع قطع دجاج ونحن خمس أشخاص,طبعاً اختايا لم يلاحظا فأخذتا كلّ واحدة قطعة,فقامت أمي بوضع الثالثة عندي,وأنا كلّ ما أفكّر به هو القطعة الرابعة كيف ستتقصّم,وبتّساوي قطّعت نصفاً لأبي و نصفاً لأمّي وكانتا أختاي تأكلا الدجاج وأبي وأمي يأكلان الخبز,وأنا أأكل الأسى

أبي مريض ويحتاج الغذاء الكافي,ومع ذلك يضحّي وأمي بأكلهما ليطعما أولادهما,لكنّي أكلت الأسى!!!....,,

وكانت هي الفرصة الذهبية لابوح عن سرّي

_أبي أمي أختاي ,أحتاجكم بموضوع بعد الغداء,وبصراحة لست جائعاً سآكل لاحقاً؛

وبعد جلسة ما بعد الطعام قررت أن أصارحهم بالسفرة,لكن قلبي لم يطاوعني بإخبارهم بكامل الحقيقة

_قبل أن تعارضوا أو تغضبوا أو تقاطعوا كلامي اسمعوني لآخر الكلام,أولاً وبالنسبة الى وضعنا اليائس والحالة الصحّية المتدهورة لدى أبي ومتطلبات العيش التي زادت وتضخّمت,وعدم ايجاد عمل (بشهادتي او بدونها) لذلك ارى أن الحلّ الأفضل هو السفر وتأمين التغطيات المادية اللازمة,ومن ثمّ أعود, لا ترشقوني بتلك النظرات الرافضة والغاضبة(والدمعة تسير على خدّي)**,انظرو كيف الحياة فارغة,كدّت أن تقّتل, لأنك تريد أن توفر المال, و الآن تحرمان أنفسكما الشبع ليشبعو أولادك لما لا نعيش نتحرّر من سجن الفقر تقولون انتظر أن يفرجها الله, متى؟؟متى يفرجها عندما نموت جوعاً و قهراً؟**

بصراحة لقد ردّوا عليّ بصمتٍ عجيب,وخاصّة أبي ,استمرّ الصمت الى ان بردت أعصابي,فقال وكان أبي يمتلك سياسة ممتازة يتعامل بها معي, **ان طلبت رأيي فابق هنا ومت جوعاً بين اسرتك أفضل من أن تسقط ولا أحد ينظر اليك في الغربة,لكن لست أنا من يحرمك من خوض مغامرة ومخاطرة تريدها,فلم أقف في وجهك عندما اخترت جامعتك وتخصصك وعملك وأي قرار تتّخذه ,لذلك لك مني كلّ التوفيق وأتمنى أن تخيّب ظنّي بالسفر ويكون هو الشيئ الأنسب والقرار الأفضل لك ولنا.**

هو صحيح لم يكن راضياً لكنه لم يقف في طريقي,رغم أنني شعرت بالتردد ونوعٍ من تأنيب الضمير لكن وضعنا الحرج كان يُوَسوِسُ لي للمغادرة وصنع الفرق.

لكن لم ينتهي كلّ شيء فعليّ تأمين المبلغ لحجز تذكرة السفر والمبيت الى أن أجد عملاً ينشلني من علّتي,فبدأت الاتصال بالاصدقاء والرفاق, وبصراحة المبلغ كان أكبر من صداقتنا, فلم اجد من مغيث ولا معيل ففكّرت بالعجوز صاحب الجمعيّة فزرّته في صباح اليوم الثاني **أهلاً بالأحباب, ماذا هل لغيت الفكرة من رأسك(**فكرة السفر**).**

_:في الحقيقة أردت أن أتكلّم قليلاً

وحكيّت له القصة كاملةً وكان في غاية الحكمة, وبعد غوص عميق في صمت أفكاره,أخرج ملفاً مكتوب عليه (المحبّة) وأخرج منه مبلغ 2000$ /1700(باوند انجليزي)ما يعادل العشرة ملاين ليرة ووضعهم في ظرف على الطاولة وقال

هذه الأموال ليست لك وعليك أن تردها متى تشاء,وأمامك خيارين ,إمّا أن تأخذها وتعيل عائلتك بها الى أن يتحسّن وضعكم وتجدوا عملاً أو أن تستعملها لتخاطر في السفر

فإذا أخترت الخيار الثاني فشرطي هو أن لا تأخذ الغربة مسكناً لك وتترك أرضك

لقد فرحت فرحاً لا يصدّق لكني مؤمن أن البقاء موت بطيء والسفر هو الأنسب,فخترت الخيار الثاني وعانقته وقمت لأغادر فنادى عليّ,**خذ هذا الكتاب كهدية منّي وحافظ عليه أريده عندما تعود(رهينة),وكلّما احتجت لنصيحة ولم تجد من تحادثه اقرأ**

تمسّكت بالكتاب ورحت مسرعاً للبيت أجمع أغراضي بعدما حجزت الفندق والرحلة الواقعة في نهار الغد في ال10 صباحاً, كان الأمر بالنسبة لي مغامرة شيّقة وشيئ جديد رغم أنّه بعيد عن عائلتي وليس مضموناً إلّا أنني كنت متشوّقاً لخوض المغامرة والمخاطرة.

ريم و رنا لم تعارضا فعلياً من قلّة ادراك المخاطر,مخاطر الهجرة, فكنت أرى فيهما وميضاً من الحماس,أمّا أمي لم تتوقّف عن البكاء من لحظة سماع الخبر,كنت حزين على حزنهم لكن في نفس الوقت كانت روحي تضيء للفكرة,فكرة أنني سأغّير الحال وأنني مقدمٌ على الجديد والأحسن,وبعدما ودّعت العائلة وهدّأت من نفوسهم فتحت الباب لأَخرج ولم أنس تلك اللحظة عندما كان أبي واقفاً على الباب ولأوّل مرة لم ينصحني ولم يعطني الحكم بل قال لي: **لو شعرت يوماً أن الأبواب أغلقت في وجهك, وَوِسع الدنيا لم يسعك, فعلم أن دائماً بيت أبيك مفتوحٌ فترجع لأحضانه**

انها المرة الأولى التي يشعر بهذا الشعور الخانق, شعوره أنني أحاول أن أخرج خارج العشّ والحضن الذي بناه

في المطار أنتظر الطائرة التي ستقلّني الى ما وراء البحار,لم أكن أعرف كيف وأين وماذا كان الفضول يطغى على كلّ المشاعر الأخرى فلم أشعر بالكثير من بعدي عن أهلي,ولم أعرف أنّ صعودي للطائرة سينقلني الى فصلٍ جديد,

الفصل الثاني:

الساعة الثانية عشر بعد منتصف الوِحدة

أجرّ حقيبتي, قلبي يخفق بسرعة, انها العاشرة صباحاً, المطار يضجّ بالهدوء ,فعلمت أنّ الضوضاء صادرة من جوفي,ضوضاء غير مفهومة مزعجة

أسمع صراخ,

طلب النّجدة,

لم أفهم ولم أعرف من أين, ركبت الطائرة التي ستقلّني الى ما وراء البحار,وكان كلّ شيئ في أحسن صورة واستمتعت بالرحلة بشكل لا يوصف فكانت أول مرّة أصعد على متن طائرة,لم أشعر بشيئ لا بالاشتياق ولا بالغربة ولا بالمسؤولية حتّى بالوقت لم أشعر به,فهبطت الطائرة بجسمي على اليابسة وتُركت روحي معلّقة بالسماء مع الأحلام,ثمّ رُدّت اليّ بعدما وطأت أقدامي خارج المطار

انها السابعة مساءً بتوقيت بريطانية

المتبقّي:1050 باوند

,لم أستوعب الضغط الذي هبط على عقلي فصرت تائهاً لا أعرف أين والى أين ومتى,وخاصة أنني لم يسبق لي أن سافرت,ولم يسبق لي أن خطّطتُ لسفرتي,

لم أشعر بأنني في بلدٍ آخر فكانت الأفكار وفرط التوتّر يسيطر على عقلي, فلم أستوعب ولم أصدق اين أنا وبرغم أنني كنت ارى كلّ شيئ و كلّ شيئٍ يدلّني على أن هذا ليس بلدي إلّا أنني لم أكترث ولم أهتم,فكانت صدمة غليظة بما يكفي كي لا تتّسع بعقلي, فصرت تائهاً لكن بنكهة لطيفة . بعدها صببت كامل اهتماماتي على أن اجد حافلة لتقلّني الى المدينة التي حجزت بها الفندق

فتحت الخارطة على هاتفي,وبدأت السير الى محطة الباصات, وعندما وصلت وتعلّمت كيف اقطع تذكرة صعدتّ مع حقيبتي وجلست أنتظر لينطلق الباص نحو مدينتي الجديدة, وأنا على الطريق شعرت بوخزة برد تلك التي أيقظتني من غيّبوبتي ,وجعلتني مدهوشاً من جمال الضباب و استقامة الطرقات, وشموخ المباني التى أغلبيّتها كالقلاع.

بدأت أنظر وأتلفّت من حولي, وأتفحّص الراكبين والمشاة,باستغراب وتعجّب, فهل هم اناس طبعيون؟يأكلون مثلنا ويشربون ويتحدثون؟؟,ثار الفضول في أوصلي فعلّقت أذني مع المتكلّمين أردت معرفة كيف يتحدّثون ويأكلون ,كيف يعيشون , و مع العلم أن انجليزيتي قوية لكني لم أفهم,فعقلي لم يستوعب أن هؤلاء يتكلمون هكذا طيلة الوقت. شعرت بسعادة غير مفهومة كنت في أوج انفعالاتي وحماسي بعدما علمت أن لديّ خمس دقائق سيراً على الأقدام من موقف الحافلة الى الفندق, فراحت أقدامي تخطّ على أوراق الشجر آثارها,لم أفكّر بشيئ مطلقا غير النوم, فدخلت الفندق ثم غرفتي التي تفوح منها رائحة الورد واندسست بالفراش أطلب النوم وأتوسّل من مطارق الأفكار أن تهدأ وتدعني أنام.

وبعد عشر ساعات نوم مُنتظرة,غسلت وجهي وانتعلت حذائي الأبيض ورحت أسير في أحشاء لندن أسير وأسير فمعي الوقت والمال الكافي وصرت أقف أتأمّل المشاة والمتاجر والمطاعم , وأجول تاركاً ورائي حبل أفكار قد لطّخ كل مطعم ومقهى و متجر مُتخيّلاً كيف سأزور كلّ واحد منهم

الى أن قاطعني خرير معدتي الفارغة الذي أوصلني اللى أحد مطاعم البيتزا,فطلبت الحجم المتوسط ب12 باوند لتكفيني بقية النهار وهكذا أكملت بقية النهار بالتجوال والانبهار وعندما عدت للغرفة وأقدامي قد تهالكت فتحت الحقيبة لأرتّبها فقد امتلأت بعجلة في موطني

لحظة!!! أبي أمي اختاي لقد نسيت !

_ ألو... لم أنسى لكن على رأسي الكثير من العمل أنا آسف وأنا بخير على كلّ حال,,

كان الجميع بخير وسعيدون لسعادتي,وأنا كنت سعيد لكن اتصالي هذا أعادني الى وعيي وعلمت أنني قد شتت عن الهدف الذي أوصلني الى هنا وأضعت نهاراً من لا شيئ,

اليوم الثالث الحرارة 17

متوجّهٌ الى عمّ صديقي صاحب الشركة التي أوصلتني الى هنا وفور وصولي, طُلب منّي الانتظار قليلاً لكنّ (قليلاً) عندهم تساوي نصف ساعة, وبعدما دخلت استقبلني الرجل وهو قاطبٌ حاجبيه, وأطفأ سيجارته في صحن قريب حوى عشرات الأعقاب :**تفضّل**

فقلت بكلّ ثقة

_لقد علمت أنّك لم تعد تريد أحداً لوظيفة, وممكن أّنك لم ولن تطلب في المستقبل القريب ,لكن أنا هنا الآن أمامك وأستطيع فعل أي شيئ تطلبه وبالاجر الذي تطلبه ريثما اثبت جدارتي

_أنت الفتى الذي أتيت بتأشيرتي (الفيزا)؟ألم يقل لك ابن اخي أنني لم أعد بحاجةٍ لك؟

انفعلت من عجرفته فقلت بصوتٍ متهدّج,

_أنا لم أأمرك أنا أسألك, أطلب , لا أأمر

_أنت ليس لك عندي شيئ ,بل يجب أن تشكرني لأنني سمحت لك أنا باستعمال التأشيرة وإلّا كنت بقيت تحتضر أنت وأباك في بلدك, شفقة منّي أنك هنا

لحظة سكوت خانقة

و بصراخ قبل أن أصفق الباب :

_أنا لا أحتاجك ولا أحتاج شفقتك اللّعينة!

شعرت بالقسوة وبالغربة تسحق قوّتي فبالعادة ما ألجأ لأبي لينشلني من بئر الصعاب. فأينك يا أبي ...

لم يعد بمقدوري السير فرحت للفراش باقتطاب شديد ليقلّني الى اليوم التالي

اليوم الرابع صباحاً الحرارة 19

الضباب كثيف,الأيام المتبقّية في الفندق:3.

حاملاً شهادتي الجامعية المزيّنة بالتّميّز ورحت أحطّ في الشركات طالباً التوظيف فبعضهم يطلبون منّي الجنسية, وبعضهم شهادة لغة, وبعضهم يطلبون مني المغادرة,وأنا في كلّ مرة أُرفض, أتذكّر أن ورائي عائلة ستجوع, فأقف طوراً على أرجلي لأحارب من جديد.

يومين لم يطرف لي جفن أحارب بنشاط من غير كلل, الى أن, أتاني عاملٌ بالفندق يسألني ان كنت بحاجة للمساعدة بلمّ الأغراض فحجزي شارف على الانتهاء,

انه العدّ العكسي.!

فقررت تكثيف البحث وتوسيعه عبرالانتقال للجرائد والتلفاز

اليوم السادس , الحرارة 16

الأيام المتبقية في المندق:1

علمت من الجرائد بوجود شركة تحتاج موظف اداري وتقع في مدينة اخرى مجاورة , فرحت لموقف الحافلات على عجل وقطعت التذكرة وعند دخولي ساعدت رجلاً مسناً في الصعود وتمرير التذكرة لعلّ الله يساعدني بشيئ فدخل فوراً الشرطي ورائي ومرر تذكرته كإشارة على توقّف الحجز ولكن تذكرتي لم أمررها بعد ما زالت في جيبي فأخرجتها ورحت مسرعا أمررها فرُفضت!! لأنها مُرّرت بعد تذكرة الشرطي ففتحَ دفتر المخالفات مبتسماً وأعطاني مخالفة ب100 باوند فصرت ارفع صوتي مدافعاً مظلوماً لعله يعفيني فأنا بأمسّ الحاجة الى النقود فاستدعاني للذهاب الى المغفر,فخفت وصرت أعتذر له رغماً عنّي ليأتي رجل برطاني يخمد الحريق, وعلّمني أنّ هنا ممنوع أن تدافع عن نفسك إمّا أن تسكت وترضى بالمخالفة أو تعارض وتسجن لأن هنا دائماً الحق مع الظالم.

وأنا الذي أردت أن أفعل خيراً,ليكافئني الله؟هل هكذا يُكافأُ من يفعل خيراً

شعرت بالمرارة بقلبي من الغربة ووحددتها وأن ليس لي أحد يساعدني حتى لو كنت أنا مظلوماً,فرحت للشركة مكسور الخاطر وقدّمت أفضل ما عندي لكن بعبوس فسعادتي قد سُلبت, وطلب التوظيف سيُدرس ويردّون عليّ بعد يومين.يومين!!! أي عندما أكون مشرّداً.

الصوت بدأ يعلو فأصبح شبه مسموع كان يقول أرجوك توقّف لم أعد أحتمل, خفت من تكرار الجملة فصرت أركض في شوارع المدينة الى أن قررت ان لا أقف,ولا أستسلم فان كان هناك مشكلة فأكيد هناك حلّ, ورحت أبحث عن بديل سكن قد ياويني الى أن أستجمع نفسي وأُقبل في تلك الوظيفة,ولكن كان ذاك الحظ اللّعين يرافقني فلم أجد غير خيبة الامل,فرجعت سيراً الى الفندق كعقاب لنفسي,وأنا طوال الطريق أفكرّ ان كان فعلا الله موجوداً,فلو كان موجوداً ألا يراني؟؟

وقبل أن أفقد الشعور بأقدامي وصلت عتبة الطريق الى مسكني فسمعت كلاماً بالغة العربية!في البداية لم أصدق لكن عندما اقتربت أكثر رأيت رجلين بنكهة عربية بحتة, فسارعت اليهم

والسعادة تكاد تقتلني, وكأني رجعت لبلدي وتحدّثنا الى أن سألتهم عن محل مبيت,ولكن بشكل غير متوقّع فرحو, فكانو يبحثون عن شريك سكن اضافي!

كنت أتحدث عن الله, ومن أكرم من الله.

هذه آخر ليلة أنامها في الفندق لكنيّ نمت والسعادة تغمرني, مؤمن أنني سأقبل بالوظيفة وسيتغيّر كلّ شيئ

اليوم السابع صباحاً الحرارة:18

المتبقّي 850 باوند

,استيقظت ويغمرني شعور أن يجب عليّ الرجوع الى البلد,لكن تذكّرت نصيحة العجوز عندما قال لي لا تهرب وتترك كل شيء وراءك,لكن يجب أن آخذ احتياطي وأبقي مبلغ العودة محفوظاً بحال أردت العودة

لذلك تغيّر المتبقّي ليصبح 450 باوند

انه آخر يوم فقمت واستحممت بالماء الساخن التي هدّأت من نفسي وسكّنت أفكاري وفور خروجي وعن غير عادة نظرت

الى نفسي بالمرآة كنت عارياً ولاحظت كم أنّ صحتي تلاشت وعظامي بانت, وكنت أخاف أن أنظر لعيوني لسببٍ نفسي تجهله بعدها وضّبت الأغراض وسلّمت المفاتيح وخرجت, والآن اصبحت أوضاعي رسمياً على المِحك,صرت أجرّ حقيبتي السوداء على أرصفة لندن, وأجرّ الخوف على شوارع صدري,خوفاً من السقوط,من الفشل

وقبل غروب الشمس رحت لأقابل الرجلين ليدلّوني الى مسكني الجديد ,فبدأنا نسير في أزقّة لم أرها من قبل وسِخة ونتنة,من ثم فتحا باباً خشبياً مصدّعاً,ودخلا ودخلت ورائهما,

كانت الغرفة معتمة بشكل مرعب, وفيها رائحة كريهة لا تطاق انها غرفة وليست شقّة غرفة فارغة فيها ستارة متّسخة في الركن تكون على الأرجح ستارة للحمّام, وبعدما تأقلمت عيناي على الضوئ الخافت صعقت بوجود أحد عشر شخصاً يجلسون ملتصقين كانو هنوداً وبكستانيون وعرب,رحّبوا بي وقالو10 باوند كلّ جمعتين, ولا أصدق أنني قبلت, لكن حالتي كانت تعبة والمبلغ يأويني من صقعة الليل الى وقت لا بأس به,حان موعد النّوم فاصطفوّا جميعاً في قاع الغرفة مُمَدّدين عكس بعضهم

البعض(رأس شخص بقربه أقدام شخص آخر)توسّدت حقيبتي وسددت أنفي,أقفلت عيوني وغصبت نفسي على النوم كي يمرّ الوقت سريعاً,

اليوم الثامن, الحرارة 15

المتبقي 435

ظهري قد تحطّم, صداع خانق, مزاج متعكّر 8 أيام على الأرض الغريبة,ثمانية أيام من الوحدة الخانقة ,ثمانية أيام أم ثمان سنوات !!

رحت أسير لأجد مكاناً اتناول فيه لقمة وأنتظر الاتصال من الشركة,وانا أمشي وأفكر بالرجوع,وما المشكلة في الرجوع؟

الى أن وصلت وجلست واتصلت بعائلتي التي تنتظر منّي مكالمة,كانت أختي الصغرة رنا تحدّثني عن انجازاتها وأخبارها وتضحك من ثمّ قالت **هناك أخبار سعيدة ستسمعها قريباً عن ريم!** وسرقت ريم(أختي الكبرى) الهاتف من يدها وبدأت تخبرني عن حالها وخروجاتها ,وانتظرت أن تخبرني الخبر المفرح لكنّها أعطت الهاتف لأمي التي بدأت بالبكاء فور رؤيتي

,أنا بخير باحسن حال لكني غريق الوقت في العمل,من ثمّ الى أبي الذي لم يتفوّه بكلمة لأنه مازال على كلامه ومازال منتظر منّي إثبات أنّ هذا هو القرار الأنسب,اطمأنّوا عليَّ وكانو سعيدين جداً وعندما أقفلت الخط امتلأت البيتزا بالدموع لأنني أخفي الحقيقة الحقيقة التي يجب اخفائها وإلّا سيحزنون ويقلقون ويخافون, فأحزن أنا وأخاف وينعمو هم بالراحة والسعادة,هكذا قلّلت الخسائر قدر المستطاع.

انتظرت طويلاً,الى أن نفذ صبري فحملت الهاتف واتصلت عليهم وجرت المكالمة كالتالي

:مرحباً أنا رامي, لقد زرتكم من عدة أيام بخصوص التوظيف وأخبرتوني أن أنتظر مكالمتكم, هل هناك أخبار؟

:_مرحباً استاذ رامي آسفون على الخبر لكن تمّ تعين شخص آخر,حظاً موفقاً.

حظاً موفقاً؟وأيّ توفيق هذا؟! صرت متأكّد الآن أن ليس للعلم فائدة اذا كنت لا تمتلك الحظ.

يبدو أن مخاوفي ستتحقق! سوف أفشل وأرجع بخيبة الأمل.

وبكلّ يأس فتحت حقيبتي وأخرجت كتاب العجوز صاحب المكتبة و لاحظت لأول مرّة أنه بلا عنوان ,بدأت قراءته لعلّه يهديني الى الحل وبصراحة كان مشوّقاً,فكانت قصّته تشبه قصتي تماماً,حتى المشاكل والوحدة, فكان البطل مهاجراً أيضاً, ولم يجد عمل تماماً مثلي,الأمر شديد الغرابة كيف يصف المشاعر التي امرّ بها,لكن!!لكن لا يوجد تكملة ,في آخر الكتاب صفحات فارغة كثيرة, والقصة توقّفت والبطل لم أعرف ماذا حلّ به,فقط فراغ, أثار فضولي بشدّة وخاصة عندما تذكرت قول العجوز أن هذا الكتاب سيرشدك عندما تحتاجه,والآن احتجته ولم أجد الجواب...

طرقت بقبضاتي على الطاولة وقمت بعزيمة واصرار وأنا أكرّر لن أستسلم لن أستسلم.رغم فقداني لآخر بقعة أمل.

فقمت لمالك المطعم وصرت أتكلم بطلاقة عن حالي ومهاراتي وخبراتي, الى أن بدت الابتسامة تتسلّق على وجهه,فانتظرت منه ردّاً مرضياً,لكنّه أخرج قلماً وكتب شيئً وقدمه لي وقال

هذا وصل مدفوع,عندما تأتي مرّة أخرى ستأكل مجّاناً وكان الله في عوّنك.

اشتدّ غضبي,فطويت الورقة بقبضتي وخرجت وأكاد أن أختنق من قهري فصرت أصرخ على طريق العودة:

بحقك يا الله ألا تراني؟أحاول وأحاول أكاد أن أموت وأنا أحاول ولم أحصل سوى على اللاّ شيئ, أو بلى حصلت على الفشل, على خيبة الأمل!!

والنّاس تناظرني بتعجّب ملحوظ وخوف وتبتعد من طريقي وكأني قافلة محترقة فرحت للمسكن توسّدت الأرض بدل حقيبتي كعقابٍ لنفسي

اليوم العاشر المتبقّي415 باوند,الحرارة 13

في الحقيقة انّها البرودة التي أيقظتني,هذه أوّل مرةّ تصل درجة الحرارة الى ما دون الخمسة عشر,جسدي منهك,وكذلك عقلي,وأشعر بالجوع,لا أحد بالغرفة لقد رحلوا جميعاً,حسناً سأرى اذا ما تبقّى لديّ الشكولا في حقيبتي.

الحقيبة مفتوحة؟! لا أتذكّر أنني تركتها مفتوحة,نظرت داخلها وقلبي يخفق بسرعة... كلّ شيئ موجود حتّى المال,لكن ليطمئنّ قلبي أخرجت المال لأعدّه والصدمة أنه ناقص 200 باوند!!! والأكثر غرابة ترك اللّص الباقي و15 باوند!!!

بدأت الصراخ على نفسي أنت المغفّل الذي ترك الأموال خارج حمايتك أنت السبب توقّف عن لوم الحظ الذي يرافقك...أريد أموالي!!

وانتظرت المقيمين جميعاً ليرجعوا واستجوبتهم واحداً واحداً الى أن اجتمعوا كلّهم عليّ وهدّدوني إمّا ان أسكت أو أن أنقلع وأنام على الرصيف.

لقد وضعت على جرحي الملح وأقفلت فمي ورحت أتوسّد الحقيبة ثانيةً لكن هذي المرّة لم تكن ليلة! بل ليالي!كنت أطلب من مقيمٍ عربيٍ أن يحضر لي الطعام عند عودته لأظل مكاني بدون حركة فلقد تعبت روحي.ووضعت باقي الأموال بالكتاب يقيناً أن لا أحد يسرق الكتب,,,

اليوم: الرابع عشر, المتبقّي: 150 باوند, الحرارة 14

انّها ال12 ظهراً,لا أحد بالغرفة لكن هناك صوت!صوت مزعج,انه صوتٌ مألوف!

_أنا لست فاشلاً أنا فقط آخذ قسطاً من الراحة.

_:ارجِع لبلدك وانعم بالراحة الدائمة,لأنّ ليس لك أي فائدة هنا,وجودك لم ولن يغيّر شيئ

أردت اثبات العكس وأنّي قادر فنهضت ورحت أحطّ على كلّ المطاعم والمحلّات والمتاجر والفنادق أسأل العمل وأتلقّى الرفض بابتسامة عريضة يومين على هذا الحال...

وفي مساءٍ غاسق وبردٍ قارس أتانا صاحب الغرفة برجال مسلّحة,وأمرنا أن نخليها فوراً ونرحل عن وجهه!!

_والآن ماذا؟ تشرّدت؟ هل أنت فرح؟لو سمعت منّي لكنت الآن بين أحضان أسرتك تنعم بالدفئ

_:فعلاً لو سمعت منك لكن أنا هنا لتنعم أسرتي بالدفئ

_وأنت تموت لا بأس؟

_:ربّما.....,

ان التشرّد الذي أنا فيه أعطاني القيمة للنعم, الآن أكثر من أي آن بحياتي لم أتخيل كيف أنني كنت اسكن في بيت هادئ, دافئ وكبير كنت اسير كثيراً لأصل الى الغرفة الأخرى,كان هناك الصحون والطعام الوفير, والآن توقظني أصوات السيارات و وبرد الليل وقساوة الطريق,وضيق المكان,وتقتلني الوحدة التي جعلت الأتربة والشوارع والصقيع عائلتي...

ظننته حلماً فتبيّن أنّه كابوس....

بدأت أشتاق وأحنّ,للأيام الوردية الرائعة في موطني...

اليوم السابع عشر,اليوم الثاني على الطريق الحرارة15

المتبقّي 106 باوند,عدى أموال الرّجوع

كنت,نشطاً فلقد اعتدت على السقوط,وبعد أن بحثت في جميع أنحاء المدينة,تذكّرت زقاقاً فيه مقاهي وفنادق فرحت لأستنجد بإحداها,فرنّ الهاتف عن غير عادة,أبي!!

وبعد السلام و الاطمئنان

_بنيّ أعلم أنّك لم تكمل الشهر لكن دائماً ما تكون أخبارك جيدة وحسنة,لذلك وإن كان لا ثقلة أريد مليونيّ ليرة,أريد عزل سقف البيت من الماء فالشتاء قد حلّ. وأيضاً اختيك قد

احتاجتا لوازم دراسية,وكي لا أخفي عليك أمّك أصابتها نزلة برد فاحتجنا للطّبيب وبعض الأدوية. خفت من قول الحقيقة وفكّرت في قطرة الماء التي ستقطر من السقف عليهم وخفت من مرض أمي ومطالب اختاي, كلّمت اختاي وشجّعتهما على المسؤوليات التي حملناها,واطمأننت على أمي وأقفلت...

أقفلت الهاتف,وأُقفلت الدنيا في وجهي,أقسم أنني أمتلك عيوناً لكنّني لم أعد أرى وآذان ولا سمع,وجسداً بلا شعور,أرسلت ال400 باوند التي تعادل المليوني ليرة ودموعي تتناثر في كلّ مكان,وصوت أنيني يضجّ بالشارع والناس يرشقونني بالشّفقة,وأنا أخاطب الله

لماذا كلّما نهضت توقعني وكلّما توقّف نزيفي تجرحني, لماذا لا تحبّ نجاحي لماذا؟!!!

....

اليوم العشرون , المتبقي 70 باوند فقط لا غير الحرارة 17

والآن حتّى ان أردت أن أهرب من كلّ هذا العذاب لا أستطيع, صرت سجين العذاب والغربة.

فتحت الهاتف,مقطع صوت! من أختي الصغرة (رنا)

_لقد اشتريت حذاءً جديداً ويبدو رائعاً شكراً لك وادامك الله أخاً أحبّه.

سارت القشعريرة على أكتافي نسيت وجع النوم على الرصيف والتحاف السماء والارتجاف برداً فنهضت ودمي يفور في جسدي ورحت للمتجر واشتريت علبة ماءٍ فيها 12 عشر قنّينة ماء بثمانية باوند ورحت الى اشارات المرور أبيع للنّاس القنّينة ب1 باوند وبعد ساعات قليلة وبشكل لا يصدّق بعتها كلّها وربحت 4 باوندات وكأنّني ربحت مال الدنيا كلّه صرت أقفز فرحاً و أفكّر كيف ل4 باوندات أن تُسّعدني الى هذا الحدّ,ورحت واشتريت علبتان وصرت أبيع بدل القنّينة اثنتان والأرباح تفاقمت وانتهى اليوم ب12 باوند ربح بيوم واحد!!! أي بالجمعة قرابة ال80 باوند اذا ما ضاعفّت وطوّرت المبيعات

ورحت للمكان الذي أنام فيه ولأوّل مرّة شعرت,شعرت أين أنا شعرت بضيق صندوق الهاتف الذي أسكن به,وبرد اللّيل الذي يسكن فيّ وشعرت بالفقراء والمتسوّلين وشعرت كيف كنت لا أقّدم لهم شيئً يوم كنت أنعم بالمال,وكيف أنّ المال كان حاجباً يمنعني من رؤية الواقع,فبدون أن أذوقها لم أكن سأفهمها.

استمرّ الوضع على حاله لثلاث أيام الى أن أتى اليوم الثالث والعشرون من وجودي على أرضٍ ليست أرضي,أبيع الماء على الطرقات بضحكة واهنة,وقلب بارد,وجسد مريض من البرد, وسعال متواصل,وفجأة أتى رجلان من الشرطة وبشكل قاسي أخذوني معهم الى المخفر!! ما القضية؟!

ماذا ارتكبت ماذا فعلت.فأتاني الردّ على شكل سهم مدبّب الرأس مسمّم دخل روحي واستقرّ...

انّ العمل الذي تفعله مخالف للقوانين,كما و صلتنا شكوى مجهولة المصدر أن هناك توزيع مياه في الاشارات والشوارع ومن قبل وجهة غير رسمية.

خرجت المغفر بعدما برّأت سمعتي وأكدّت لهم أنني لن أعيدها ثانية رحت أمشي وأنا عليل الجسد والروح "أنتم لا تفهمون أبداً معنى أن يفعل المرء كلّ ما بوسعه بدون جدوى..."

,كلّ شيئ أصبح خانقاً مخيفاً,رحت أمشي الى اللانهاية الى أن سمعت الصوت المألوف لكن هذه المرّة كان واضحاً ومفهوماً

_لا تبالِ بوجع الجسد والقلب استمرّ بالمشي لعلّك تشفى

لم يعد جسدي العليل يقوى على المشي أكثر فبدأت أشعر بانزلاق الأرض تحتي فعلمت أنّ هذا الصوت يريدني أن أهلك..!

فرحت لمحطة القطار ثمّ للقطار وأخذت أغطّ بنومٍ ثقيل ينجيني من الهلاك مرضاً, فكان القطار بالمجّان للجميع فيه تدفئة دائمة,

استفقت صباح اليوم الرابع والعشرون جسدي منهك وأفكاري ممزّقة وروحي ذابلة فاتصلت بعائلتي لعلّي ألملم بعض الطاقة

ردّت ريم **_لقد حملت الهاتف لأتصل بك لدي أخبار سعيدة,حسناً اسمع أتذكر مجد؟ الصحافيّ صديقي,حسناً أراد أن يتقدّم لي منذ فترة و... وهو جيد بل رائع و... اسمع أنه يفهمني ويحترمني كثيراً وأنا كذلك و...لا أعلم حسناً أنا آسفة لم أخبرك بالحقيقة لم أخبر أحد,والآن هو قادم مع أهله ليتعرّف على أبي وأمي وأنا بقمّة سعادتي, اسمع آسف لقد**

تكلّمت كثيراً لكنني متوتّرة ولا أعلم ماذا أفعل أتمنّى لو كنت بقربي...

تزاحمت أفكاري هل أسعد لفرحها؟ أو أحزن أنني لست قربها بمثل هذه المناسبة؟؟

_:ما أبهاكِ يا صغيرتي أحبّ هذا الحماس لا تقلقي فقط اهدئي وتصرّفي بحكمة وافرحي قدر ما استطعت ومبارك لك ولا تقلقي سآتي يوماً ما. أوصلي تحيّاتي للجميع وخاصّة مجد سلام.

يا لحياتي اللّعينة كم كنت أوّد أن أكون معهم في تلك اللحظة وفي تلك الفرحة .

,,,

_أختك طلبها رجلٌ والآن يحتفلون بدونك.ولا يعرفون كم تعاني! تعاني ماذا أنت تموت أنت تقتلني,لم ينفع معك شيئ حتّى الرجوع بات مستحيلاً وعائلتك سعيدة تحتفل "وكأنّك شمعة أحرقت نفسها لتضيئ غرفة شخص أعمى",سعداء وأنت بعيد عنهم, ما نفعك أيها الغبي ارحل متّ,أنت وجودك

ثقل على المجرّة,لا أحد يريدك حتّى الله لم يعد يريدك ألم تلاحظ بعد؟؟!! أنا تعبت من المعاناة أريد الرّاحة.

_:أموت؟! ,,, أين أنت أجبني!! لماذا تظهر فجأة وعندما أجاوبك تختفي,تريدني أن أموت؟توقّف عن قول التفاهات!

ومرّ يومان على السكوت لا أحد يتكلّم ففكرة الموت أخافتني وخفت أن يتكلّم من جديد

استفقت في ليلة من احدى الليالي الباردة على صوت ركض وابواب تغلق,قمت على عجل وإذ بالهاتف مفقود,على ما يبدو قد سرقه وفرّ هارباً وأبواب القطار تقفل فجلست وحضنت ركبتيّ محدقاً بالفراغ, فقدت الهاتف الذي يوصلني بعائلتي والعالم,

_اسمع! لم تقل لي اسمك

_:انا أنت

_أخبرني أكثر عن حالنا

_:ممزّقة

_لكنّنا لازلنا أحياء

_:أتسمّي من لا يأكل ولا يشرب ومشرّد وعليل وقذر وغريب ووحيد وعاطل أنّه حيّ؟!,نحن نتنفّس لكنّنا متنا

_متنا؟

_:صدّقني الكلّ سعيد وبعد فترة سينسون وجودك...أنت فقط ارتح

_ولما كلّ تفكيرك في الموت,في المقابل يوجد ربّ رحيم

_:وأين الله؟ الله الذي يجرّدك من أموالك وصحتك وسعادك وأهلك؟! أجبني!.... انه يريدك أن تموت!

_توقّف توقّف توقّف .....

كلّ ما أتذكّره أنّني نمت بعد صراخ وبكاء شديد والآن استيقظت من جديد...

التاريخ؟ مجهول..

الحرارة؟ تفتك بالعظام...

المتبقّي بضع باوندات

_يا صاحب الصوت المألوف هل رحلت؟

_:لم و لن أرحل إلى أن أنال مبتغاي

_لقد فكّرت مطوّلاً ووجدت حلّاً,عشر أيام...ستحدّد مصيرنا اذا لم تتحسّن حالتنا سأنفّذ مطلبك...

الفصل الثالث: للموت معاني

الرسالة الأولى

الى أحدٍ يسمع..

لدي عشر أيام وأذوق الموت,

أكتب لعلّي أهرب من الصّوت صوتٌ قد يقتلني قبل فوات الأوان أخاف الموت قبل فوات الأوان...

لقد اشتقت لأبي وأمي واخوتي,ان كنت تسمع فأنجدني

الرسالة الثانية

أكتب الى الشخص الذي لا يقرأ

لقد عانيت الكثير هنا على هذه الأرض المشؤومة...

"علّمتّني الوحدة أنّني أمتلك قوى خارقة,تجعلني أتنفّس وأنا غريق!"

الرسالة الثالثة

الى الشّخص الأعمى.

لقد اشتقت للمطعم القذر والطرقات المتعرّجة,والكتب العربية, والكلمات العربية,

هنا لا ينسى المرئ كيف يتنفّس لكنّه ينسى كيف يعيش,يارفيقي هم يذهبون للنادي ويركضون ويركضون دون أن يذهبوا لمكان,وأنا جالس مكاني وروحي تعوم في أرجاء موطني

الرسالة الرّابعة

الى لا أحد

انّه اليوم الرابع من كتابة الرسائل وابشّرك لقد اختفى الصوت!!

لكنّ تأثيره مازال في جوفي,

لديّ سؤال لك أنت تختار الثراء لكن العيش وحيداً أو الفقر وحولك اناس يحبّوك؟

مهما كانت اجابتك أنا فقير وحيد وهذه ليست موجودة بالخيارات!

الرسالة الخامسة

الى أحدٍ يغيثني

أشعر باللا الشيئ,, أتشعر مثلي؟

أتعلم لقد حاولت كثيراً وسرعان ما أدركت أنّني أحاول وأصارع وأموت لأجد لا شيئ.

أعلم أنّك لم تفهمني.

الرّسالة السادسة

الى صديقي الوحيد

هل في حياتك يا صديقي شككت بوجود الله أو برحمته؟

حسناً أنا لا, لكن أشغل أيّامي في التّفكير ما اذا كان فعلاً الله رحيماً.

الرسالة السابعة

الى صديقي الذي لا أعرف عنه شيئ

أنا أعتب عليك يا صديقي,أنت لم تخبرني شيئ عنك هل تأكل وتشرب؟ هل ستنتحر قريباً؟

الرسالة الثامنة

الى صديقي الذي لا يعرف الكتابة

ثمانية أيّام في القطار أكتب رسائل موجزة اليك لعلّك تجيبني وتسرقني من صراط المنايا لكن على ما يبدو ستشتاق الى رسائلي....

الرسالة التاسعة (الأخيرة)

الى الشخص الذي ليس بأحد و الذي لا يسمع ولا يقرأ لا يرى ولا يكتب اليك يا صديقي الوحيد هذه آخر رسالة أكتبها لك,أنا تأكّدت الآن أّن الله ليس رحيماً.

عشرة نوفمبر

وكأنّني أحمل وصيّة موتي رحت أضع الرسالة في (جيب للمفقودات)ككلّ مرّة لكن هذه المرّة فاجأني ظرف أبيض صغير,أخذته بحرارة وارتميت على أحد المقاعد أقرء,رسالة!!!وبخط بشع بالانجليزية

(:إلى الذي جعلني صديقاً له تحيّاتي وبعد,لقد قرأت جميع رسائلك,وان كنت فعلاً تظنّ أنّ ليس لك أحد فها أنا ذا,ان كنت فعلاً تعتبرني صديقاً دعني ارك غداً صباحاً وأرجوك لا تخيّب ظنّي,أعطني فرصة أبرهن لك أنك لا تستحقّ الموت.

ملاحظة: اقبل منّي المبلغ المالي كهدية صداقة.)

وأخرجت ال100باوند من الظرف وأنا أقفز فرحاً, ورحت أركض خارج القطار بحرارة,وأصرخ و أضحك وعيوني تدمع

_"لقد قلت لك أن الله سينقذني في الوقت المناسب فقط كان عليّ أن أصبر أعلم أنّك لن تجيبني فهذا أفضل لكلينا."

دخلت حجرة الهاتف التي رأت من دموعي الكثير,واتصلت فوراً بعائلتي,وراحت الدموع تلطّخ وجهي...

وبدأو يصرخون فرحاً وعتاباً **كيف تغيب خمس عشر يوماً بدون اتصال ولا خبر!**

_لقد سُرق الهاتف وانشغلت كثيراً وهناك عمل كثير يشغلني حتّى عن نفسي ...

.....

بعد كلّ هذه المدّة لقد نسيت معنى الدفئ!!

ثم دخلت أحد المطاعم ورحت ألتهم الطعام بشراهة,ثمّ فتحت الرسالة وأعدت قرائتها علّي أُصدّق..

أنهيت يومي مستلقياً سعيداً على أحد مقاعد القطار أنتظر النوم ليقلّني الى اليوم الذي سيجمعني بالمنقذ.

صباح الخير! 11

صباحُ يومِ تغيير الأقدار...,

رحت أجول في المحطّة وأنظر في جميع الخلق باحثاً عن وجه مجهول!.جلست أرضاً الى أن سقطت عيوني في مرمى عيون فتاةٍ تراقبني.لبثتُ مكاني أتفحّص لعلّ العيون تلاقت صدفة

.بالفعل على ما يبدو استشبهت بملامحي,لأنّها تناثرت مع المشاة, لكنّ!! تجلس بجانبي. بصراحة كانت تسبق الجمال بخطوة,جميلة بأناقة ناهية,لكن جمالها ما شغلني, فجلست بدون كلام,لأُكملَ البحث في وجوه العالم الى أن مرّ الكثير الكثير فرحت أجمع أقدامي للوقوف فقالت الحسناء:

“Someone to find me”

"الى أحدٍ يجدني"

تلفّتت نحوها وعيوني تكاد تخرج من وجهي

_ماذا قلتي آنستي؟!

راحت تضحك وتميل للأمام والخلف وعطرها صار يتسلّل الى جوفي.

ضحكتُ ببرود فمشاعري قد حرقتّها الوحدة.

_Maria smith بعدما وقفت ومدّت يدها للسلام.

وقفت معها ورحت أتأمّل كفّها باستغراب ملحوظ,وهي تتأمّل وجهي بتفاصيله.

_وكيف عرفتني من بين مئات البشر؟؟أجابت ضاحكة

_دعنا نخرج من هذا المكان المشؤوم و بعدها أخبرك

بصراحة لم أتردّد رغم الدهشة لأنّني أردّت أن أهرب من الوحدة والموت!أردت التغير بأي شكل من الأشكال...

استعمرنا زاوية من احدا زوايا المطعم, ثم أخرجَت أدوية من الحقيبة وأعطتني ايّاها,وبعدها طلبت من النادل احضار الطعام,ثم وقفت وخلعت المعطف والقلنسوة,فقلت بالعربية "كنت أخطط أن أموت مدهوساً بقطار لا من الجمال!" شعرها أحمر يتدلّى على أكتافها,وعودها رفيعٌ منحوت,تناثر عبق عطرها في الارجاء فصرت أناظرها تتكلم دون أن أسمع فقط أبتسم فجمالها وأناقتها وأسلوبها استحوزوا على عقلي...

_ما بك تحدّق بي هكذا؟!

_:اعذريني فلم أر شيئاً جميلاً منذ مدةّ..

كانت الضحكة الخجولة تلك وقوداً قد أجّج قلبي لهباً!!لكن سرعان ما أطفأه العقل قائلاً(لا وقت لمشاعرك, الآن علينا أن ننهض من تحت الركام)

_:كنت أقول... أنا أستقلّ القطار كلّ يوم ,وفي أوّل مرّة أتيت الى القطار كانت ملامحك مبعثرة فلفتّ انتباهي فصرت أراقب تصرّفاتك الى أن بدأت كتابة الرسائل فكنت آخذها فور خروجي كلّ يوم أترجمها وأقرأ,وفي آخر يوم أخذت رسالتك ووضعت رسالتي.

_اذاً فعلاً كنت تقرأين... لكن لما تساعديني.

_:حسناً أرى شخصاً يريد الانتحار وأنا الوحيدة الذي أعلم وأقف متكتّفة؟؟.و عدا عن ذلك أنا أردت التعرّف على حياتك أكثر ولِما تدهورت الى هذا الحد.

_حسناً أقبل بشرط أن أرد كلّ باوند تدفعيه لأجلي

_:موافقة....

تحسّن حالي بعد لحظة الادراك تلك أنّ أحدهم يهتمّ لأمري,وبعد الطعام والعديد من الأحاديث البسيطة,قمنا وأخذتني الى حي سكني قديم ووقفنا تحت عمارة ملّونة وقالت **الطابق الثاني الباب اليسار أنتظرك ستنام عندي ريثما نجد مسكناً لك.**

_هل أهلك في البيت ؟

_لا أحد سواي لماذا

_اعذريني لا بأس سوف أنام في القطار الليلة فلقد تأقلمت الى أن نجد ذاك المسكن

_:لن أقبل مستحيل, حسناً اسمع رفيقتي في الشقّة المجاورة سأنام عندها وأنت بمفردك في البيت.

وقفت لحظة أتأمل أفكّر أحقاً هذا ليس حلم؟لما تساعدني فتاة لا تعرف الّا اسمي ؟؟نظرت بها وقلت:**ليلة واحدة فقط.**

صارت تضحك من السعادة وأعطتني 20 باوند لحلاقة شعري وذقني في الوقت الذي ستحضّر البيت لي, فرحت عند الحلّاق ووقفت أمام المرآة و لم أجد نفسي في الصّورة وجدت رجلاً قذراً يغطيه الشعر,عيونه خائفة وملامحه مشتّتة.

_افتحي يا ماريا هذا أنا رامي.

ما ان فتحت الباب حتّى أوقعت من يدها الهاتف و وقفت متأمّلة

_:YOU BETTER STAY JUST ONE NIGHT OR I'LL FALL IN LOVE

"من الأفضل أن تبقى ليلة واحدة فقط والّا سأقع بالحب"

_لا تبالغي!

وراحت تدلّني على البيت الصغير والقديم,الغرف والشرفات ثمّ تركتني لآخذ حمّاماً من ثم تأتي لتسهر عندي فلدينا الكثير لنعرفه.

آه كم احتجت لحمّامٍ ساخن,بعد كلّ البرد والأوساخ الّتي اعتلت جسدي,لبست آخر ثوبٍ نظيفٍ من حقيبتي,وجلست أنتظر ماريا بأفكار مبعثرة,جاءت ومعها بعض السكاكر والعصائر وجلست جانبي **_سامحني على بساطة المكان**

_:بالنسبة لكِ بسيط لكن بالنسبة لي انّها قلعة,قصر..

حسناً أخبرني قصّتك.وهي تصبّ عصيراً لكليّنا

رحت أسرد وأحكي من البداية..الى أن وصلت للأريكة التي اجلس عليها. صارت تبكي, وأنا أحارب دموعي قامت من أريكتها وعانقتني قائلة:**أعلم أنّني ما زلت غريبة واعلم أنّك من الممكن أن ترفض عناقي لكن قلبي قد تلاشى بعدما أيقنت أنّ مصائبك قد تعلو على قوايّ.**

_: لا تقلقي أنت غير مجبورة.

جلست أمامي وبدأت تروي قصّتها كيف أنّها تركت أهلها بكل بساطة لأنّها أصبحت كبيرة وأتت الى هنا لتعمل وتعيش حياة براطنية عادية.

طالت السهرة فوقفت للذّهاب لشقّة صديقتها فقلت لها

_ماريا,أريد شكرك جزيل الشكر على مساعدك وتشرّفت بمعرفتك يا صديقتي...

_:أنت لطيف جدّاً يا صديقي.

الفراش مريح جدّاً والبيت دافئ والرائحة عطرة والهدوء منتشر, شعرت بطعم التغير ,الحمدالله الذي لا يترك أحداً.

صباح الخير بعد النوم المريح الطويل,غسلت وجهي وارتديت ثيابي واذ يُطرَق الباب بنعومة,فتحت الباب واذ شعرت بوخزة في قلبي عندما رأيتها حاملة كوبين من القهوة وتلك النظرة التي تداوي القلب مع صباح الخير...وأعطتني كوب ودفعتني بمزاح الى الداخل**أيّها ال طويل ماذا خرّبت في شقّتي ,خذ هذا حذائك قد سرقته ليلة الأمس لأنظّفه لك,سرقته لأنّني علمت أنّك لن تقبل,خذه لقد رجع أبيضاً.وهي تنظر في عيوني بطريقة لطيفة**

_لا أعرف كيف أشكرك, حقّاً! أعدك أنّ أعوّضك يوماً ما...

_:لا أريد شكر أريد أن نخرج الآن لنبحث لك عن عمل فأجار الشقّة كبير. وهي تنظر يميناً ويساراً بضحك..

12

كان البرد قارصاً في الخارج,والضباب كثيف.رحنا نمشي بلا توقّف بدون أن أعرف الى أين,كانت يداها في جيب المعطف وأنفها احمر كحبّة الكرز..كنتُ مرتاحاً مع تلك المرأة بشكل لا يوصف بكلّ خطوة معها, دخلنا مطعم كبير وطلبت منّي ماريا الجلوس على احد الطّاولات ريثما تعود, غابت دقائق لا أكثر وأتت سعيدة مبشّرة **_مبروك لقد توظفت لكن يجب أن تذهب الى المطبخ للتدرّب الآن**

_:توظّفت ماذا؟ أتدرّب كيف؟ ماذا تقولين كيف ذلك؟؟!!

_لا تستغرب أوّلاً أنا أعمل هنا, ثانياً صاحبة المطعم تقربني من أبي لذلك كان الأمر سهلاً..

أردت معانقتها بشدّة لكن شيئ ما قد منعني

_:أريد مقابلة المديرة حالاً لأشكرها

_لا لا انّها مشغولة بشدّة الآن. وغيّرت الموضوع قائلة

اسمع يا طويل الرموش أنا ساعدتك في التوظيف بشرط واحد

_:حاضر سوف أدفعُ الايجار واردّ لكِ المال.

_لا لم أطلب منك المال. الشرط هو أن تسهر معي ونتحدّث وأصبح وجهها أحمر من الخجل فاستدركت موقفها قائلة **أقصد لدينا الكثير لنعرفه عن بعضنا البعض.**

ساد الصمت المريح بيننا الى أن ذهبت الى المطبخ,وصارو الطبّاخين يساعدوني ويعلّموني,كانت وظيفتي نادل يأخذ الطلبات ويحضر الصحون أمّا هي كانت تعمل في المطبخ تحضر الطلبات,بعد ساعة من حفظ القوانين والتعلّم خرجت لميدان العمل,ولن أنسى أوّل طلب كان لحم مقدّد مع البيض المقلي,ورحت أتجوّل في أرجاء المكان وأرشق الزبائن بالإبتسامات,كنت أتضوّر جوعاً بطني تتقطع وأحمل الطعام.

الى أن أعطاني رجلٌ ذو عكّاز ذهبي وملابس مخملية ورقة خمسين باوند(بقشيش)شكرته وأدرت ظهري أصرخ بصمت وسارعت لماريّا,**أنظري كم المبلغ الذي حصلت عليه!!! وهذا عدا عن مدخولي!!**صارت تقفز من السعادة ثم قالت:**اذاً اليوم الغداء على حسابك.**همدت النيران المشتعلة في وجهي لأنيّ

كنت أريد ارسال المبلغ الى اختاي لكن عليّ أن أقدّم لها شيئ يسعدها كما تسعدني فهي منقذتي.

_لك هذا

_:لا بأس لا عليك أنا فقط انفعلت.بعدما لاحظت تعابير وجهي

انتهى عملنا على الرابعة ورحت لأستلم يوميتي واذ 50 باوند!! في اليوم!,كانت بالنسبة لي ثراء فاحش رحنا نمشي وما زلت مُصِراً على أن أقدّم لماريا شيئ حتّى لو كان بسيط,فعاينت برأسي مكاناً ورحنا نمشي,بصراحة رغم تعبي الّا أنني فرحت بطول الطريق ربّما لأنّها الى جانبي,صرنا نتبادل أحاديث منها العمر فلا أعرف عمرها ولا هي تعرف عمري,**_أنا يا صديقتي أصبحت 24 سنة من أبريل الماضي,وانت؟**صارت تتهرّب بالمزاح من الجواب الى أن قالت **بالمناسبة عيد ميلادي في الواحد والعشرين من نوفبر أي بعد تسع أيّام من اليوم يصبح عمري 25 سنة.**

وصلنا المكان المنشود كان مكاناً بسيطاً وعتيقاً,ويوجد محل سوري يبيع الشاورمة كنت قد عرفته من يوم التشرد, طلبت (2ساندويش),كانت ماريا في قمة السعادة لسبب مجهول

أعطيتها ال(ساندويش) وأخذتها الى حافّة بحيرة مُزنّرة بالأشجار,وجلست ودعوتها للجلوس,وقفت جانبي بعيون مُبلّورة_**أنت تقصد أنّنا سنجلس هنا تحت السماء,لا مطاعم أو استراحات ونأكل الساندويش؟؟**

شعرت لوهلة أنّها لم تقبل أو أنّ ليس من مقامها الجلوس خارجاً فأجبت:**_أنا ليس معي المال,حتّى لو امتلكت فأهلي أحقّ منّي به وأنا لا أمتلك على هذه الأرض سواكِ,فمن واجبي اسعادك بما أستطيع وليس المهم أين نخرج ونأكل المهم أنّنا نأكل ومع من نجلس.** واذ جلست وعانقتني مرّة اخرى قائلة,**أنا من الآن وصاعداً لن أردع نفسي من معانقتك...كم كنت أنتظر أحدهم لأعيش معه ببساطة بواقعية أحبّ الطريق والشتاء والواقعيّة والصدق,من قال أنّني أريد المطاعم والاستراحات أنا أريد الصدق أينما كان...**جلست جانبي بسعادة لا توصف ورحنا نأكل الشاورمة مع غروب الشمس ونضحك ونحكي.....

لن تصدقوا لكن أشعر أنّني فعلا متّ بعد عشر أيّام لكن بطريقة مختلفة

,,,

نسهر كلّ يوم نحكي ونضحك دون ضجر,مرّ أسبوع على هذا الحال ويأتيني اتصال من أبي وأنا في العمل,قد احتاج مبلغ مالي لمراجعات الطبيب و بعض الفواتير السنوية,

كنت قد جمعت 350 باوند من عملي ب7 أيّام فقرّرت ارسالها له,بعد العمل رحت وماريّا لمكان ارسال النّقود

_سامحيني يا صديقتي سوف أتأخّر على تسديد الدّين

_:من قال أنّك مديون لِأحد,أنت فقط أكمل واجبك وما بالك منّي فأنا لست غريبة.

رحنا الى مكان السّكن واذ برفيقتها تلمّ أغراضها لإخلاء الشقة,

والآن ماذا قالت ماريّا وهي تنظر اليّ بحيرة,جلسَت على الدّرج خارجاً وعانقت أقدامها, **ما بكِ أيّتها الصّغيرة** وأنا أجلس بقربها

_:انّ مدخولي محدود ولا يمكنني أن أدفع أجار شقّتين

_حسنًا ولما شقتين,شقّتك موجودة وكبيرة كلّ واحد بغرفة وندفع الإيجار بالنّصف.فكرة أنّني سأكون معها لأوقات أطول أسعدها كما أسعدني فرحنا ننقل الأغراض ونرتّبها,أخذت ماريّا غرفة النوم وأنا أخذت غرفة الجلوس

_:رامي,, ما هو الشيئ الذي يجعلك سعيداً؟

_كثير من الأمور تجعلني سعيداً,"لأنّ السعادة بالنسبة لي قرار اتّخذه",لكن أهم الأمور التي تجعلني سعيداً رؤية عائلتي بصحة جيّدة ومرتاحين من كلّ الجهات وأكون بقربهم....

ولذكرهم قمت صباحاً بالاتصال بهم والاطمئنان عنهم,فبدأ ابي يقول فرِحا,**لقد وصلنا طرد مكتوب عليه المحبّة فيه مؤونة ومبالغ مالية.,,,** كان هذا أجمل خبر قد دخل أعماقي فعائلتي فعلاً مرتاحة

21 نوفمبر,الحرار 12

انتهينا من العمل ورحنا للبيت نحضّر أنفسنا فاليوم عيد ميلاد ماريّا,لبست ثيابي بسرعة وجلست وعن غير عادة أشعلت التلفاز علّ الوقت يمضي بسرعة بدل الانتظار,كانت إحدى المحطّات تذيع الأخبار فوقفت لأطّلع على ما يجري في هذه البلاد,بدأ المذيع مقاله بمقدّمة يحكي فيها عن الفتاة ابنة كبار رجال الأعمال التي هربت من الإعلام والمحاكمات منذ فترى.

لن أنسى اسمها ابداً (Anna stark)لأنّها رمت ما ابحث عنه

وقبل أن يبدأ المذيع بصلب الموضوع أقفلت ماريّا التلفاذ بعجل

_هيّا سوف ينتهي النهار

كان الطقس يقتل من البرد فاستقلّينا سيارة أجرة(تاكسي) لنذهب الى المكان الذي سأحتفل فيه بعيد ميلاد ماريّا,وبالصدفة استأنف المذياع نشرة الأخبار:**'منذ وفاة والدها تركت آنّا القصور والأموال والسيارات واختفت,وكأنّ الثراء لا يهمّها...**

_ماريا انظري الى تلك الفتاة لقد تركت الشيئ الذي نبحث عنه!

_:ربّما عندها ظروف لا تحكم عليها بالسوء هكذا,المهم الآن الى أين تأخذني؟

_ستعرفين قريباً. نزلنا في أكبر مجمّع ترفيهي في المدينة

_اسمعي كلّما مررّت من هنا كنت أقول سيأتي يوم وأصعد الى ذلك البرج لأناطح الاسحاب, ويبدو أنّني سوف أفعلها معك اليوم,وبدون اعتراض مهما كلّفنا الأمر.البرج يتألف من 35 طابق وسقف شاهق مطلّ على المدينة والمشكلة هي أنّه فندق أي جميع الطوابق مسكونة وممنوع دخولها الّا بالدّفع,لذلك كانت الخطّة أن نصعد بالسر ,وبعد عدة محاولات بائت بالفشل

دخلنا من ورائ الفندق الى المطبخ بالسّر,وكنّا نرتعب خوفاً,وسرقنا ملابس الطبّاخين ورحنا للمصعد ونقرنا على زر ال35 وصار المصعد يقف كل عدّة طوابق ليحمّل ويفرّغ صعوداً ونحن ننشر الابتسامات لعلّها تنجينا وبالفعل وصلنا وتسلّقنا درج السقف العلوي الى أنّ...شهقت ماريّا من جمال االسحاب وأنا من جمال المدينة وأضوائها,كنّا نضحك و نتنفّس بصفير ونلهث من التعب, وبعد جلسة راحة وهدوء أخرجت من حقيبتي غلاف ورقيّ وسلّمته لماريّا **_كلّ عام وأنت من رَفضتُ الموت لأجلها,.**.قلت بقلبي" كلّ عام وسأموت بحبك"...**عدا أنّ أحوالي المادية عسيرة فأنا أحبّ دائما الهداية المعنويّة غير المادية أتمنّى أن تعجبك.**فتحت ماريا الظرف وأخرجت وردة بيضاء ثمّ حجر مدبّب ثمّ شوكولاتة من نوعها المفضّل,وورقة(رسالة),رفضتُ أن تقرأها الآن,وقمت وعانقتها وكانت المرّة الأولة التي أعانقها...وبينما كانت الفراشات البيضاء تمزّق صدري من معانقتها يصرخ أحد الحرّاس علينا من بعيد فرحنا نركض ونضحك بلا توقّف ولزمنا السلالم مسرعين,نفرّ من أيد الحرّاس بعدها دخلنا مصعداً للطعام مع طبّاخين آخرين وبدأو يستجوبونا الى أن فتح المصعد أبوابه

ورحنا نركض موقعين احدى طاولات الطعام,وفرّينا هاربين راحت تصرخ:**(you are crazy)(أنت مجنون),**

جلسنا على الرّصيف نستجمع قوانا ومن شدّة البرد وضعت ماريّا يدها في جيب معطفي لكن أخرجتها فور أن وجدت ورقة مطويّة,فتحتها وكانت الوصل من المطعم عندما كنت مشرّداً فرحنا مسرعين من شدّت الجوع وأكلنا الى أن امتلأت بطوننا وكان الحساب بالمجّان وكانت هذه واحدة من الصور التي تريني كم الله كريم.

عدنا للبيت سيراً واذ بوابلٍ من الأمطار يسقط علينا,مسكت يدها اليسرى بيد وخصرها بالأخرى ورحنا نرقص على الحان المطر في وسط الطريق في قاع الضباب.لم أعرف أنّها تبكي فالماء يغطّي وجهها عندما قالت لي **كانت أمنيتي الرقص تحت المطر**

هذا أجمل يوم بحياتي أنتَ أجملُ شيئ حصل لي!!

22 نوفمبر,أجلس في القطار مع حقيبتي أنتظر...من؟؟أنتظرها لماذا؟؟لأنني أخاف أن لا أكون أنا من تنتظره هي,لكن!أتت غاضبة تنظر اليّ حاملة رسالتي بيدها,وتقرأ:

This is not the first time I am writing you ,and not the last

على ما يبدو اننا خرجنا سوياً,واستمتعنا,وكنتِ فائقة الجمال.أنا واثق لأنني لن أعطيك هذا المكتوب الّا اذا خرجنا,ولأنّك دائماً ما تكوني مستمتعة بقربي,أمّا لما أنا واثق بأنّك فائقة الجمال فالّسبب واضح ألا وهو أنّك دائما ما تكوني فائقة الجمال. أريد أن أكون مختلفاً بما أقدّم..

الكلّ يسعى أن يجعلك تضحكين وأنا أسعى أن أجعلك سعيدة,الكلّ يسعى أن يكون أوّل من يعايدك وأنا أسعى أن أكون أفضل من عايدك,لذلك كل يوم وأنت بخير.

ماريا,أنا أحبّك وأخاف أن أحبّك فلا أمنحك ما تستحقّين,أخاف ألّا أكون أنا الشّخص الذي تنتظرينه,فكما ليست كلّ الهدايا تقبل ربّما لم تقبل هديّتي لذلك أنا رحلت وان كنت تريديني فعلاً تعرفين أين تجديني

وعندما انتهت لكمتني على كتفي و عانقتني وهي تبكي **ايّاك أن تتركني ثانيةً...**

لم أتركك لكنّي أردت أن أعرف ان كنت فعلاً تريديني.

أّمّا هذه الفتات فكانت أحد أجمل نعم الله التي ذقتها...

مرّ الوقت بخفّة, لم نشعر به جوار بعضنا البعض كنّا نلهو ونمرح ونحكي ونسهر,28 يوماً كلمح البصر,جنيت الكثير من المال وجنيت الكثير من السعادة بقربها.

19 هذا اليوم من الأيام الجديرة بالذكر فأتتني مارّيا حزينة تحتاج للمال لتعيل أمّها العليلة, بدون تردّد قدّمت لها جلّ ما أملك,فوقفت لحظة تسألني_**أليّس هذا ما تدّخره لعائلتك؟!**

_:حسناً,وأنت واحدة من عائلتي,لقد وقفتي بجانبي الى أن وقفت على أقدامي والآن دوري أقف الى جانبك.

غطّت ابتسامتها وجهها وغمرتها السّعادة وودّعتّني لتذهب غداً الى أمّها وأنا أترجّاها لأكون معها وهي ترفض.

الفصل الرابع :مقهى دسمبر

20 ديسمبر استفقت على دخول احدهم غرفتي وجلس على سريري, فتحت عيوني على ابتسامة عريضة من ماريّا,ودعتني لشرب القهوة,و بعد جلسة لم تدم الكثير وضَعَت مارّيا حقيبة على الطّاولة أمامي وأخرجت تذكرتيّ سفر ومبلغ 4000 باوند,وإذن لعطلة مدّتها شهر,موعد السّفر بعد ساعتين ,والوجهة وطني العزيز...

وقفت من الصدمة! ولم أستوعب كمّية الأحداث التي حصلت وسألتها عن أمّها وتقول في الطائرة ستجيب على كلّ أسألتي ,رحت ألمّ أغراضي بحماس قاتل وأخيراً سأشمّ رائحة الوطن لم أترك باقية في الشقّة وساعدتها أيضاً.

في الطائرة كنت أرقص وأنا في مقعدي,وهي ترجف من فرط التوتّر_**ما بكِ عزيزتي؟**

_:أريد أن أخبرك بشيئ لكن لا أعلم من أين أبدأ فالموضوع كبير وبعدما ارتاحت كانت الصدمة غير متوقّعة

رامي ,,أتذكر الفتاة على الراديو التي هربت من أموالها؟حسناً هذه أنا, أنا من تركت الأموال وهربت, هربت من كلّ شيئ,مات أبي في دبحة قلبية رغم كلّ الأموال التي يمتلكها وكل المستشفيات,وماتت معه السعادة في قلبي,الأموال التي أمتلكها من بعده لا تسع في هذه الطائرة ولم أجد فيها ولا لحظة سعادة,فهربت وتركت كلّ شيئ ورائي وصرت أبحث عن الصدق والعلاقات التي تخلو من المصالح والمادّيات فوجدتك ولم أجد السّعادة الّا بقربك,معك,بكلّ لحظة كنت أجلس فيها معك كنت أشعر بالأمان والراحة والصدق,جلسات الطريق والرقص في الشوارع,والهرب من التصنّع والمسرحيّات

أنا مستعدّة أن أدفع كلّ ما أملك لأحظى على شخص مثلك يجلب لي السعادة, والرّسائل والورود لا السّيارات والسّاعات...سامحني لأنّني كذبت عليك لكن كان عليّ أن أجد من يحبّني لنفسي لا لأموالي

وبعد ساعة صمت أجبت بهدوء

_:أنا أحببت ماريّا الفقيرة. كانت هذه الجملة تذكرة الى الصّمت المطوّل

21 من ديسمبر

تراب الوطن بعد غياب طويل الرائحة الأشجار الطرقات, كلّ شيئ رجع الى صراطه,كلّ إنشٍ في جسمي ينعم بالحياة الّا قلبي مازال في غيبوبة,

كنت أجرّ وأحمل الحقائب عن ماريّا واشتريت لها الورد رغم أنّني لا أتكلّم معها ولا زلت على حياد لكن هذا لا يعني أني لا أهتمّ بها, أمّا هي كانت هادئة ساكنة, دخلت البيت بيتي وما بين غمار وغمار شلّالٌ يروي ظمئي,عرّفت أهلي بماريّا التي كانت بقمّة السعادة كانت تبكي من لحظة وصولها فعانقتها أمّي وقدّم أبي لها الورد وأختاي الحلوى المنزليّة,فلَمَسَت طعم العائلة.

ساعة وأخذّتُ ماريّا جانباً وعانقتها_ **أنا أحبّكِ لأنّكِ أنتِ و أعلم أنّها بالنسبة لك ليست بكذبة لكن أنا صدّقتها لذلك حزنت.**

_:لكن لولا الكذبة لما حصلت عليّ وهي تقرصني من كتفي.

,,

قرّرت ماريّا بتشجيعٍ منّي التّبرع بأموالها للفقراء والمحتاجين, فرحنا للعجوز صاحب المكتبة(وجمعية المحبّة) ليرشدنا. ورحت أتأمّل مكتبه باحكام وأنا أطوّق خصر ماريّا,

_ماريّا أعتقد أنني علمت أين ستتبرّعين بأموالك...

, رحّب بي العاجوز بفرحة,وجلسنا جلسة مطّولة انقضت بشراء المكتبة بتبرّعات ماريّا التي ستعود لجمعية (المحبة),وترميم المكتبة وافتتاحها كمكتبة ضخمة ومقهى تحت اسم (مقهى دسمبر).,

بشرط أن يكون العجوز مدير المكتبة.

وبعد ابرام الصفقات طالبني العجوز بالأمانة (الكتاب),

_قبل أن أعطيك الكتاب أخبرني لما تمنّيت لو كنت فقيراً

_:سافرت في صغري أبحث عن المال لزوجتي وولدي وقضيت كلّ حياتي في الغربة مع المال,وبلحظة أتاني خبر وفات زوجتي وابني بحادث سير في سيارتنا الفاخرة,فمال الدنيا ما قدر على ارجاعهم بل أبعدني عنهم عندما كانو أحياء

فقدّمت له الكتاب في 21 ديسمبر تحت عنوان (مقهى دسمبر) ,فقال فخوراً بنبرة خافتة **أنت اخّترت أن تكتب قصّتك بنفسك وتختار الصواب.....,**

دائما يوجد بداخلنا صوت يرسلنا لليأس والتّحطّم والفشل,لذلك وجب علينا دائماً توجيه هذا الصوت ليحفّزنا ويقوّي من عزيمتنا ,دائماً اجعل صوتك يطغى على صوت نفسك ولا تطعها فدائماً نفسك أمّارة بالسوء

واعلم أن كلّ واحد لديه حرية بتحديد مستقبله وكتابة قصّته الخاصة التي تليق به

واعلم أنّ من حقّك أنت وعائلتك أن تعيش عيشة كريمة

واعلم أنّ السعادة قرار

واعلم أنّ العائلة دائماً ما تكون الغنى الحقيقّي والفقير فعلاً هو الذي يمتلك المال فقط, أمّا أنا فامتلكت الاصرار والعزيمة وامتلكت عائلة وامتلكت ماريّا,كما وأمتلك الله الذي لم و لن يخذلني أبداً....